الغرب والشرق الأوسط

"سجال وتباين"

برنارد لويس



ترجمة

وتعليق

سمير مرقس

تقديم

السيد يسين



برنارد لويس

الغرب والشرق الأوسط

"سجال وتباين"

برنارد لويس

الغرب والشرق الأوسط
سجال وتباين

ترجمة وتعليق
سمير مرقص

تقديم
السيد يسين

ميريت للدراسات والنشر
المدير العام: محمد هاشم
القاهرة ١٩٩٩
الغلاف
مجاهد العزب

نشر المقال في : فورين أفيرز، مجلد ٧٦، العدد ١ ، يناير فبراير ١٩٩٧

رقم الإيداع / ٩٩/٢٧٧٣

المحتويات

كراسات ميريت .. وهذه الكراسة

تهدف سلسلة "كراسات ميريت" إلى المساهمة فى ممارسة نقدية نشيطة ومستمرة في الصراع الفكرى والأيديولوجى الدائر حول أهم القضايا المحلية والعربية والعالمية.

وبداية يقتضى ذلك الهدف – من بين ما يقتضى – التعرف على الرؤى المختلفة للمفكرين والباحثين حول تلك القضايا، مهما تعددت انتماءاتهم الفكرية والأيديولوجية.

وتعتبر هذه الكراسة (الغرب والشرق الأوسط) خطوة على هذا الطريق. فالمؤلف هو برنارد لويس الذى ينطلق من رؤية مركزية غربية لما يسميه بـ "الشرق الأوسط، ومن الترويج لفكرة أن العلاج الناجع لمشكلات هذا الشرق الأوسط إنما تكمن فى المحاكاة الجامعة المانعة للغرب. كما أنه يستر دور الغرب فى "تخلف" معظم البلدان فى آسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية، وهو يعتبر إسرائيل دولة ديمقراطية فى محيط من الاتوقراطية ضاربا عرض الحائط بالطبيعة العنصرية للاستيطان الإسرائيلى فى فلسطين العربية، وبالاضطهاد والقهر والقتل وبمختلف صنوف معاداة الديمقراطية.

كما اشتبك المترجم الأستاذ سمير مرقس مع النص المترجم فقدم لنا دراسة نقدية لما قدمه برنارد لويس.

لم نكتف بذلك، بل تفضل أستاذنا السيد يسين بكتابة مقدمة هامة سلط فيها ضوءا باهرا على النص والدراسة النقدية.

كما ساهم الفنان مجاهد العزب بتصميمه الجيد لغلاف هذه الكراسة – وهو تصميم ملئ بالدلالات ذات الصلة بما نهدف إليه من ممارسة نقدبة.

حسنين كشك

المشرف على كراسات ميريت

تقـــديم

"الغرب والشرق الأوسط: سجال وتباين" هو عنوان النص الذى اختار الأستاذ سمير مرقس أن يترجمه ويعلق عليه بصورة نقدية، وقد جاء الاختيار موفقا لسببين: أولهما المركز المتميز الذى يشغله برنارد لويس فى عالم الاستشراق الغربى وتأثير كتاباته على عدد كبير من القراء الغربيين، وثانيهما أهمية النص ذاته، بحكم أنه يعد عينة نموذجية للكتابات الاستشراقية عن العالم العربى، بكل ما تتضمنه من رؤى وتصورات وأحيانا تحيزات فكرية صريحة أو ضمنية. ولعله تكمن فى فكرة التحيز نقطة انطلاق سمير مرقص فى ممارسة تحليلية النقدى لمقال برنارد لويس.

والحقيقة أن المراجعة النقدية لفكر الغير يثير مشكلات نظرية ومنهجية تذهب إلى مدى أبعد من نص برنارد لويس نفسه. والسؤال الجوهرى فى هذا الصدد هو: كيف يمكن قراءة النص؟ هناك إجابات متعددة على هذا السؤال، تعكس تعدد النظريات والمناهج التى تبلورت فى العقود الأخيرة، والتى قدمت إلينا وسائل متعددة للقراءة. ويمكن القول إن التطورات التى حدثت فى مجال سوسيولوجيا المعرفة (علم اجتماع المعرفة) كانت حاسمة فى تقدم طرائق النص، لأن هذا العلم يحاول بطريقة منهجية رصد العلاقات المتشابكة بين الإنتاج الفكرى والوجود والاجتماعى. وهو بالتالى استطاع

أن يضع بين أيدينا أدوات منهجية للتعمق فى سوسيولوجية النص إن صح التعبير. كما أن الإيجاز الملحوظ لدراسات تحليل الخطاب بكل فروعها، أدت إلى تطوير قراءة النصوص وإلقاء الأضواء الكاشفة على خباياها، وعن المسكوت عنه فيها بطريقة غير مسبوقة.

والأستاذ سمير مرقس فى تحليله النقدى وأن كان لا يستخدم منهجيات علم اجتماع المعرفة، ولا وسائل تحليل الخطاب، إلا أنه يحاول من خلال استدعاء، تاريخ الاستشراق من ناحية، وإلقاء نظرات نقدية على الإنتاج العلمى السابق لبرنارد لويس من ناحية أخرى، أن يكون كل ذلك مقدمة للتحليل النقدى للنص المترجم، لكى يثبت أن هناك تاريخا متصلا يتمثل فى تسرب مسلمات الاستشراق إلى النص المترجم من ناحية، وفى استمرار صاحب النص فى تحيزه فى النظر إلى التاريخ العربى الإسلامى وإلى الثقافة العربية الإسلامية.

ولا يمكن فى تقديرنا تقييم اختيار النص المترجم دون غيره من النصوص التى يمكن وصفها "بالاستشراقية" أو التحليل النقدى الذى مارسه سمير مرقس، بدون التطرق إلى نوع الاستراتيجية الفكرية التى ينبغى أن يتبناها الباحثون والمثقفون العرب فى هذه اللحظة الحاسمة من تطور النظام العالمى.

وهناك اتفاق بين الباحثين على أن النظام العالمى الذى شرع منذ عام ١٩٨٩ فى الانتقال من النظام الثنائى القطبية إلى النظام الأحادى القطبية، يثير مشكلات متعددة أهمها الانتقال من القديم المعروف إلى الجديد المجهول!

ونعنى بهذه العبارة على وجه التحديد أننا بالضرورة نتجه تجاه نظام عالمى جديد لم تتضح معالمه وقسماته بعد، وأخطر من ذلك أن النظام العالمى نفسه فى حالة سيولة وفوضى، تحتاج إلى جهود دائبة لضبطه وتعيين معاييره وقواعده . ومن بين هذه الجهود التى ينبغى أن تنسق على المستوى الدولى خطة منهجية ينبغى وضعها وتنفيذها لحوار الحضارات. ذلك أنه بعد سقوط هيبة الأيديولوجيات القديمة سواء فى ذلك الماركسية الجامدة، أو الرأسمالية المتوحشة، فالساحة مفتوحة أمام حوار للحضارات، تسهم فيه ثقافات العالم المتنوعة والغنية برؤاها لخلق عالم جديد شجاع إذا استخدمنا العبارة الشهيرة للكاتب الإنجليزى ألدوس هكسلى.

وقد سبق لنا فى كتابنا "الوعى التاريخى والثورة الكونية: حوار الحضارات فى عالم متغير (الصادر عن مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية عام ١٩٩٤) أن نشرنا نصا عن حوار الحضارات، قررنا فيه أننا – معشر المثقفين العرب – علينا القيام بواجبات ثلاثة:

- المتابعة النقدية لفكر الآخر.
- ممارسة النقد الذاتى لثقافتنا ومجتمعاتنا العربية والإسلامية.
- الإبداع الذاتى لنظريتنا الحضارية

ومحاولة سمير مرقس الراهنة تدخل قطعا فى الواجب الأول الذى اقترحناه، وهو المتابعة النقدية لفكر الآخر. ولكننا قد نأخذ على المحاولة، أنها لم تستفد بالقدر الكافى من الإنجازات المنهجية الحديثة فى سوسيولوجيا المعرفة وتحليل الخطاب. غير أنه أهم من ذلك استعارتها غير الموفقة – فى تقديرنا – لبعض مفاهيم ما يطلق عليه حسن حنفى "علم الاستغراب". ذلك

أن العلوم الجديدة لا تنشأ بقرار فردى يصدره باحث منعزل، بقدر ما هى تتشكل عادة نتيجة تراكم فكرى ومعرفى طويل، مما يرشح مبحثا علميا ما لأن يرتقى إلى مرتبة فرع علمى معين - بل أن مصطلح الاستغراب ذاته يعد وقوعا غير مقصود فى أحضان الاستشراق ذاته! ذلك أنه إذا كان الاستشراق بحسب التعريف - نوعا من المعرفة المتحيزة عن الآخر، فإن "الاستغراب" المقترح يمكن أن يكون هو أيضا ضربا آخر من ضروب المعرفة المتحيزة للأنا عن الآخر! وفى كتاب حسن حنفى نفسه أمثلة عديدة من ذلك، وخصوصا فى مجال تبنى نظرة استعلائية إزاء الآخر!

لذلك كله تفضل تعبير "التحليل النقدى لفكر الآخر"، ونقصد به على وجه التحديد استخدام مناهج سوسيولوجيا المعرفة، وتحليل الخطاب والمناهج الأخرى الحديثة فى قراءة النص.

وإذا كان سمير مرقس قد قام بطريقته بالواجب الأول فى الاستراتيجية الفكرية التى يقترحها، وهى المتابعة النقدية لفكر الآخر، إلا أنه لم يقم كما ينبغى بالواجب الثانى وهو النقد الذاتى لثقافتنا ومجتمعاتنا. وذلك لسبب بسيط ونعنى تبنيه لمنهج هجومى دفاعى فى نفس الوقت فى تعامله مع نص برنارد لويس، ونعنى الهجوم على الاتجاهات الفكرية للمؤلف، والدفاع المجيد فى نفس الوقت عن حقنا فى الاختيار الحضارى الحر، حتى لو حدث ذلك بعيدا عن منطلقات الحضارة الغربية.

وفى رأينا أن ممارسة النقد الذاتى كانت كفيلة بتخفيف حدة الهجوم على بعض الملاحظات التى ساقها برنارد لويس، أو على بعض النتائج التى خلص إليها. وأيا ما كان الأمر، فقد منحتنى قراءة نص برنارد لويس الذى

ترجمه باقتدار سمير مرقس، فرصة لمتابعة أفكار هذا المستشرق الشهير الذى تابعت مسيرته الفكرية منذ زمن بعيد، كما أن التحليل النقدى اللاذع الذى قدمه أثار فى ذهنى عديدا من التساؤلات عن ضرورة الاهتمام بتجديد مناهجنا فى قراءة النصوص، سواء كانت من إنتاجنا أو من إنتاج الغير. وهذه مهمة يقع على عاتق الجماعة الأكاديمية والبحثية المصرية أن تنهض بها باستخدام وسائل شتى.

لقد آن أوان متابعة الثورة النظرية والمنهجية الكبرى التى حدثت فى العلم الاجتماعى العالمى فى العقود الأخيرة.

القاهرة: ٢٤ يناير ١٩٩٩ — السيد يسين

❖

مدخـــل

منذ أعوام وفـي إطـار اهتمـامي بالشـأن القبطـي وبقضيـة المواطنـة فـى مصر، ومتابعة المسألة الطائفية المحتقنة منذ عام ١٩٧٢، كنت أحاول رصـد العوامل الداخلية التى أدت إلى هذا الاحتقان ورصد المراحل التاريخيـة التـى مرت بها المواطنة، صعودا وهبوطـا، علـى مـدى تـاريخ مصـر. وفـى نفس الوقت، رصد دور العامل الخارجى فى هذا الأمر.

وبالنسبة للعوامــل الداخليـة كتبـت دراسـة حـول المشـاركة السياسـية للأقباط: بين المحـددات العامـة والصعوبـات الخاصـة لنشـرت عـام ١٩٩٤.. وبالنسبة للعامل الخـارجى كتبـت دراسـة بعنـوان: المسـار التـاريخى لمخطـط الإلحاق - التجزئة للمنطقـة العربيـة (حالـة مصـر) وذلـك فـى نفس العـام ١٩٩٤ ونشرت بمجلة القاهرة، وكانت فى إطار مواجهـة مؤتمر الأقليـات الشهير بملابساته المركبة. ونتيجة تصاعد اهتمام الغرب بالمسألة الطائفية فى مصر. ثم حاولت أن أتفهم الأمر أكـثر وبـدأت أتـابع كثيراً مـن الأدبيـات الأجنبية حول هذا الأمر إلى أن أثير موضوع قانون التحـرر مـن الاضطهـاد الدينى الذى طرح فى الكونجرس بداية من عـام ١٩٩٧ وأقـر مؤخـرا فـى أكتوبر ١٩٩٨. وبالفعل نشرت دراسة مطولة حول القانون وتداعياته ومن ورائه ومسيرته التشريعية، وكانت الأولى باللغة العربية، وذلك على حلقتين بمجلة اليسار فى فبراير وإبريل ١٩٩٨. ثم فـى جريـدة الشـعب القاهريـة، كذلك فى جريدة النهار البيروتية. وكـانت محصلـة ذلـك كلـه أن تبلـورت

لدى رؤية كاملة حول العلاقة بين الغرب والمسألة الطائفية فى الشرق الأوسط كانت بداية لأن أضع كتابا(*) يتتبع هذه العلاقة منذ بداية الدولة العثمانية وحتى وقتنا هذا.

جوهر هذا العمل هو أنه فى سبيل أن يتحقق الإلحاق الاقتصادى فإنه يعتمد على آليتين للتجزئة هما:

– التجزئة الأفقية وأحداث انفصام حضارى بين نموذجين فى التطور والتنمية داخل الكيان الواحد.

– التجزئة الرأسية، أو شق الجماعة الوطنية على أساس طائفى إلى مسلمين وأقباط.

ولتحقيق التجزئة الرأسية / الطائفية فى الأساس رصدت المراحل التالية:

(١)مرحلة الامتيازات الأجنبية وتبنى استراتيجية الرعاية المذهبية.

(٢)مرحلة الإرساليات التبشيرية وتبنى استراتيجية الاقتناص والتفكيك.

(٣) مرحلة الاحتلال البريطانى وتبنى استراتيجية "فرق تسد" وتدويل مصر".

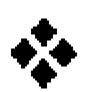
(٤)مرحلة غرس الكيان الصهيونى وتبنى استراتيجية التفتيت والغزو من الداخل.

(٥) مرحلة حقوق الإنسان/ الأقليات وتبنى استراتيجية التدخل فى شئون الدول بعيدا عن الشرعية الدولية .

(*) الغرب والمسألة الطائفية.فى الشرق الأوسط: من الرعاية المذهبية إلى قانون التحرر من الاضطهاد الدينى. (تحت الطبع).

في هذا الإطار وقعت بين يدى كثير من الوثائق والأدبيات منها دراسة برنارد لويس "الغرب والشرق الأوسط"، والتى نشرت فى مجلة فورين أفيرز وكنت أنوى أن أضعها فى الجزء الوثائقى للكتاب كأحد الملاحق الهامة الدالة على رؤية الغرب للشرق الأوسط، خاصة وأن هناك فصلا حول الشرق الأوسط كمفهوم؛ إلا أن الناشر رأى أن ينشر هذا النص مستقلا لأهميته مع إعداد تعليق خاص حول ما جاء فيه. من هنا كان هذا النص وهذا التعليق، إنها محاولة، وكما يذكر أستاذنا السيد يسين فى كتابه الهام والرائد: الشخصية العربية(**)، محاولة لتصور الذات وتصور الآخر بهدف أن يبدأ المثقفون العرب فى حركة نقد ذاتى واسعة المدى للنظام العربى كله، لكى نجابه مشكلاتنا الأساسية: قدرتنا على الإبداع الحضارى متمثلة فى صياغة نموذج عربى للتنمية والتحديث، وتصميمنا على تحقيق العدالة الاجتماعية بين مختلف الطبقات، وأخيرا، وقد يكون أولا، شجاعتنا فى حل المشكلة الديمقراطية فى العالم العربى.

أرجو أن يكون هذا الكتاب عند حسن ظن الجميع، وأن يكون إضافة معقولة إلى عقل الأمة، ولا يفوتنى أن أشكر كل من تحملنى أثناء أعداد هذا الكتاب، وفى البداية لا أنسى زوجتى التى شاركتنى فى كل مراحله، والناشر الأستاذ محمد هاشم.



(**) دار التنوير، ط٣، ١٩٨٣.

"الغرب والشرق الأوسط"

برنارد لويس

(١) هل التحديث .. غربى؟!

فى عام ١٥٩٣، قام المؤرخ العثمانى ، سيلانيكى مصطفى أفندى، بتسجيل واقعة وصول السفير الإنجليزى إلى اسطنبول . لم يكن المؤرخ العثمانى يهمه كثيرا أمر السفير الإنجليزى ، فلقد كان منبهراً بالأكثر بالسفينة التى أقلت هذا السفير. مما دفعه أن يكتب "أن سفينة بهذا القدر من الغرابة لم تدخل ميناء أسطنبول من قبل قط". "لقد قطعت ٣٧٠٠ ميلا بحريا ، وحملت ٨٣ مدفعا بالإضافة إلى أنواع أخرى من الأسلحة... إنها كانت أعجوبة العصر، التى لم تشاهد أو "تدون من قبل". لماذا اهتم المؤرخ الأسطنبولى هذا الاهتمام المركب، بسفينة قادمة من جزيرة يكاد يسمع عنها وكان يعتقد خطأ أنها أبعد نقطة فى أوروبا؟

إن تفسير دهشة سيلانيكى مصطفى أفندى، ليس عسيرا على الفهم، إذا قام المرء باستدعاء ما كان يحدث فى هذا العصر.

لقد أبحر البرتغاليون حول رأس الرجاء الصالح وكانوا نشطاء فى المياه الشرقية، وتبعهم، ليس بوقت طويل، الهولنديون والإنجليز. إن البرتغال،

التى تعد واحدة من أصغر وأقل الأمم فى أوروبا الغربية من حيث عدد السكان، قد استطاعت أن تؤسس إمبراطورية بحرية وتفوق تجارى فى جنوب آسيا، حيث كانت تقع ثلاث إمبراطوريات إسلامية كبيرة، العثمانية والفارسية والمغولية فى الهند، لم تستطع مجتمعة أن توقفها (البرتغال) أو أن تعيدها أدراجها.

وبعد مائة عام، ومع أفول القرن السابع عشر؛ أدرك حكام الإمبراطورية العثمانية - القوة السائدة فى الشرق الأوسط، والتى تعد درع وسيف الإسلام الموجه إلى أوروبا - إن الدول التى تقع على الجبهة الشمالية الغربية قد صارت شيئا آخر غير انهم مجرد بربريون وغير مؤمنين. وعلى مدى قرن ونصف (مائة وخمسون عاما)، وقع العثمانيون مع أعدائهم المسيحيين فى صراع دموى فى وسط أوروبا. والذى سرعان ما حسم بفشل حصار الأتراك لفيينا للمرة الثانية سنة ١٦٨٣ وانسحابهم. وأثناء هذه الحرب، عانت القوات العثمانية، للمرة الأولى من خسائر فادحة فى ميدان المعركة؛ وتعد اتفاقية السلام التى جرت فى عام ١٦٩٩ أول نصر يفرضه العدو على العثمانيين.

ونتيجة لما سبق، أخذت النظرة إلى الغرب تتغير - حيث اعتبر مصدراً للخطر وللإلهام فى آن واحد. لقد أدرك القادة العثمانيون سريعا أن هناك أموراً ينبغى أن يتبنوها، ويتأقلموا معها، ويقلدوها ويستعيروها، ويستجدوها، ويشتروها أو يسرقوها حتى يمكن أن يقفوا على مستوى الندية مع الجيوش الغربية وأسلحتها بالتأكيد، ربما بفضل بعض الأدوات الأخرى.. أول دروس هذا "التغير الحضارى" قد تجسدت بفاعلية وبوضوح على أرض المعركة، أعقبتها دروسا أخرى لاحقا، وإن فى شكل أكثر التباسا.

هناك العديد من التساؤلات بدأت في فرض نفسها من نوع ما هو الشيء الذى كان يبحث عنه المصلحون العثمانيون ومن يتبعهم من الحكام المسلمين في الشرق الأوسط؟ ماذا قبلوا من عناصر الحداثة الغربية وإلى أى مدى كان هذا القبول؟ لقد استغرق الحوار حول هذه العملية والقرارات التي تتطلبها في الشرق الأوسط ما يقرب من ثلاثة قرون، وهى أطول مدة استمر فيها هذا الحوار بالنسبة لأى منطقة أخرى في العالم الغير غربي.

وفي كتابه " في زمرة المؤمنين" لاحظ ف. س نايبول، أن كثيرا من قادة المسلمين في يومنا الحاضر يرون العلم والتكنولوجيا الغربيين كسلعتين في سوق (سوبر ماركت)، يستطيعون الذهاب إليه، والشراء في مقابل المال، المنتجات التي يرونها مفيدة، ويرفضون تلك التي لا يرغبون فيها. ويوحي تعبير "يرفضوا" ، بأن هناك اختيارا فيما يتعلق بالتحولات التكنولوجية والسوسيولوجية، بينما هو في أحد جوانبه يعني الاستعارة. إن الاختيار يعني إمكانية الأخذ في الاعتبار، التقويم، ورفض أمر من الأمور مقدم إليك. كذلك هناك مغزى فسيولوجي، يشابه قبول أو رفض الجسم البشرى لعملية زرع أحد الأعضاء فيه. إن الحجة التي يتزايد سماعها في الشرق الأوسط هو أن ما تحتاجه دول المنطقة هو التحديث بدون التغريب. بمعنى، قبول، أو بالأحرى، قبول منتجات الغرب ذات الثقافة المادية، وربما أيضا العلم والتكنولوجيا، ولكن بغير المركب الثقافي، والقيم المزيفة ونمط الحياة الفاسدة المرتبطة بهذا المركب.

لمناقشة كل الأسئلة المطروحة، فانه من الضرورة إجراء عدة مقارنات، على الرغم من الشعور بالحسد وعدم القبول في السنوات الأخيرة من القرن العشرين. فإنه يجب إجراء المقارنة بين الغرب والشرق الأوسط في لحظة التحديث الأولى، ثم دراسة وضع الشرق الأوسط قبل وبعد تأثير

الغرب عليه. وأخيرا، وبأكثر الطرق بنائية، لابد من مقارنة الشرق الأوسط بمناطق أخرى غير غربية وإن كانت تأثرت بالغرب.

(٢) صعود الغرب

يمكن اعتبار السفينة التى وصلت إلى اسطنبول، مثالا مبكرا، لميزة القوة البعيدة المدى التى ميزت الغرب، وأيضا، لروح البحث والاستكشاف، والتى تجلت أخيرا - وليس آخرا - فى أن يسير الإنسان على القمر، والبث الفضائى خارج نطاق المجموعة الشمسية.

ليس صعبا الوصول إلى تفسيرات عملية حول قدرة كل من البريطانيين، والهولنديين، والبرتغاليين، فى تأسيس سيطرتهم البحرية - وبالتالى الإمبريالية - لضم الأراضى الممتدة. لقد واجهوا التحدى الذى مثله لهم الأطلنطى وخصومهم الأوربيون. (المغاربة أيضا واجهوا تحدى الأطلنطى، ولكنهم احتفظوا بالجزء الخاص بهم لأنفسهم) لقد طور كل من الإنجليز والهولنديين والفرنسيين والأسبان والبرتغاليين قدراتهم البحرية، وقاموا ببناء السفن وزودوها بالأسلحة وبالقدرة على المناورة، مما جعلها تتفوق كثيرا على مثيلاتها المتوفرة لدى القوى الإسلامية.

لقد بنيت سفن الإمبراطوريات الشرقية لتلائم البحر المتوسط، والبحر الأحمر، والخليج العربى والمحيط الهندى. ولم يبن أحد سفنا أقوى، وأكبر، وبالتالى أكثر تكلفة. لقد كانت سفن المسلمين صغيرة، وضعيفة، وبطيئة بالمقارنة مع السفن التى بنيت لمقاومة بحار الشمال، وعواصف المحيط الأطلنطى. إن سفن الإمبراطوريات الشرقية الهشة والفقيرة التسلح - نسبيا، لم تكن لتجارى الكراكات البرتغالية، والتى كانت تحمل عتاداً أكثر ثقلا وضخامة.

أيضا، كان لتفوق السفن الأوروبية أهمية كبرى فى التجارة، حيث أنها كانت أكبر حجما، وأكثر قدرة على المناورة، وأفضل تجهيزا، كما كان يمكنها أن تحمل شحنات أثقل، بسرعة أكبر وأسعار أرخص. كما كانت تقدم نفس المميزات للركاب؛ فمع حلول القرن الثامن عشر، كان الكثير من الحجاج المسلمين من الهند، وجنوب شرق آسيا يسافرون إلى الأراضى المقدسة فى شبه جزيرة العرب على متن السفن الأوربية.

أصبح لدى شعوب الشرق الأوسط، وخاصة الأتراك، الذين كانوا فى المواجهة، وعى متزايد بتفوق الغرب الذى ظهر جليا فى ساحة المعارك وأسواق التجارة. فلقد شهدوا جيوش الغرب - التى كانت محتقرة سابقا — تلحق الهزيمة تلو الأخرى بجنود الإسلام الذين كانوا لا يقهرون، كما رأى الشرقى أوسطيون التجار الغربيين يتسللون بهدوء إلى الأسواق التى كانوا يسيطرون عليها.

وبحثا عن أسباب النجاح التجارى المتزايد للغرب، فسوف نعود إلى السفينة التى رآها "سيلانيكى"، حيث كانت تحمل رسولا من الملكة اليزابيث الأولى إلى السلطان العثمانى. فرغم أن هذا الرسول كان مفوضا من الملكة إلا أن شركة الشرق LEVANT COMPANY ، وهى شركة مساهمة أسست فى إنجلترا بغرض التجارة فى الشرق، هى التى كانت مسئولة عن تعيينه، وعن راتبه، كذلك تغطية مصاريف السفارة (المزمع تأسيسها) وليس التاج البريطانى. فإمكانية أن تتحمل المملكة الإنجليزية فى نهاية القرن السادس عشر عبء وتكاليف إقامة سفارة لها فى اسطنبول، كان أمرا بعيد الاحتمال. ولكن شركة الشرق رغبت فى ذلك، وقامت بإعداد الترتيبات من أجل أن تساند السفارة أعمال الشركة. ورغم أن السفارة كانت تحمل اسم السفارة الإنجليزية، البريطانية لاحقا. إلا أنها

كانت فى الواقع سفارة شركة الشرق وذلك فترة الحروب النابوليونية، حينذاك رأى التاج البريطاني أنه قد حان وقت تحمل مسئولية هذه السفارة.

قدمت الشركات التجارية الأوروبية الضخمة مثالا لاستخدام القوة الاقتصادية فى علاقاتها مع الحكومة، وفى هيكلتها، وفى إدارتها لعملياتها الكبيرة الممتدة عبر مناطق متسعة، وأيضا، وعلى وجه الخصوص، فى قدرتها على تحريك اعتماداتها المالية، كل ذلك على مدى لم يكن متصورا فى هذه المرحلة المبكرة من تطورها الاقتصادى. ولا يختلف تأثير هذا الزواج "الميركانتلى"، التجارى، بين الحكومة و"البيزنس"، عن الوقت الحالى لما بلغته القوى الاقتصادية فى الشرق الأقصى.

أكثر من ذلك، فإن شركة الشرق كانت كيانا طوعيا - أى كيان يضم - مجموعة من الأفراد الذين التقوا معا بسبب قناعاتهم وأغراضهم، وسياساتهم، ومصالحهم أو مشروعاتهم المشتركة. وتختلف العلاقات فى مثل هذه الكيانات عن كل من علاقات الولاء الإجبارية التى يكنها المحكوم للحاكم، أو علاقات الانتماء اللاإرادية التى يدين بها الأفراد لكل من العشيرة، العائلة، الطائفة القبيلة. ولم ينشأ فى معظم مجتمعات الشرق الأوسط والغير غربية هذا المستوى من العلاقات الطوعية الوسيطة (بين الدولة والعائلة)، حيث أن بزوغ هذا النموذج من العلاقات، كان مميزا، وقاصرا لزمن، كظاهرة غربية. وتضم المنظمات الطوعية مجموعات متنوعة مثل الشركات، والاتحادات التجارية، والأحزاب السياسية وحركات الكنائس، والكليات المعتمدة على نفسها، والنوادى، والفرق الرياضية، والتى شكلت شبكات تطورت لما يعرف أحيانا بالمجتمع المدنى.

وتوضح أيضا، سفينة شركة الشرق سمة هامة أخرى للعالم الغربى، إلا وهى الإصرار على تعظيم استخدام الطاقة. ففى المجتمعات التقليدية،

الشرق الأوسط وغيره، كانت الطاحونة مصدرا أساسيا للطاقة إلى جانب القوة العضلية للإنسان والحيوان، وقد استخدمت المياه أولا ثم قوة الرياح بعد ذلك. وتعد الطواحين مصدراً لسعادة جامعي الضرائب، إذ إنها ثابتة في أماكنها ، يستحيل إخفائها، هذا بالإضافة إلى أنه طالما استمرت، هذه الطواحين، تولد الدخل، فالضرائب مستحقة. وللأسباب نفسها فإن الطواحين تعتبر أيضا مصدراً لسعادة المؤرخين. فأولئك الذين يجمعون الأرشيف، الخاص بهذه الطواحين، والذى يعتمد عليه المؤرخون، فإنما اهتموا فى المقام الأول بالمال وتطور اقتصاديات هذه الطواحين، وعليه فلقد بات لدينا توثيقا جيدا للغاية حول هذه الطواحين. وتكشف الأبحاث التى قام بها "شارل عيساوى" (جامعة برينستون)، أن إنجلترا، خلال القرن الحادى عشر، وتحديدا بعد الغزو النورماندى بوقت قصير، كانت تمتلك عددا من الطواحين كنسبة إلى عدد الأفراد ما يفوق ما كان موجودا بالأراضى العثمانية المركزية فى ذروة قوة ومجد الإمبراطورية.

وعودة إلى قافلة السفير، فسوف نجدها سفينة بحرية، بكل المقاييس، فتجهيزاتها كانت أكثر تعقيدا عن مثيلاتها التى يمتلكها تاجر من حوض البحر المتوسط، مما مكنها، من أن تبحر وتقطع المسافات، فى حال وجود رياح مناسبة، فى وقت أفضل؛ ومن تجنب الظروف غير المواتية، والانطلاق بسرعة النسيم فى حال هدوء الرياح. وكان لاستخدامها كل هذه الإمكانيات أن أتيح لهذه السفينة الإبحار فى الأطلنطى. لقد استطاع الغرب أن يطور مصادر أخرى للطاقة، وبخاصة الخشب، والفحم، ولاحقا البترول، والذى أمكن بحرق هذه المصادر أن تتولد طاقة هائلة. فى المقابل، استهلك الشرق الأوسط ثروته من الخشب فى صنع الأنتيكات هذا بالإضافة إلى ضعف ثروته من الفحم. ورغم امتلاك الشرق الأوسط كميات هائلة من

البترول، إلا أنه لم يكن يعرف كيف يستخرج أو يستثمر هذه الطاقة، حتى جاء آخرون وأوضحوا ذلك. وبشكل عابر، أود أن أقول، إن البترول قد أثبت أنه نعمه - ربما يقول البعض بأنه لعنة - فى الدول التى وجد فيها، حيث وظف ليكون دعامة للأنظمة الاستبدادية وعائقا أمام التحديث الاجتماعى. فلقد أعفى البترول الحكومات الطاغية من الحاجة إلى فرض الضرائب ومن ثم التعرض للضغوط والآثار التى تنجم عن رفع الضرائب، أكثر من ذلك فلقد وظف البعض المبدأ الأمريكى القائل "لا تمثيل بدون ضرائب" فى قطع الطريق على المشاركة السياسية. وسوف يحمل المستقبل أوضاعاً أسوأ ، فعلم وتكنولوجيا الغرب، اللذان جعلا البترول - فى البداية - أمرا نافعا وضروريا، وسوف يجعلانه، إن عاجلا أو آجلا، أقل أهمية، وأولئك الذين يعتمدون على عائدات البترول سوف يواجهون واقعا جديدا.

نقاط أخرى يمكن رصدها حول السفينة المحملة (سفينة السفير)؛ وذلك أنها كانت تدار بواسطة بحارة أحرار وليس بالعبيد الذين كانوا يعملون على السفن الشراعية القديمة. هؤلاء البحارة كان يحاربون ويديرون السفينة فى نفس الوقت، وذلك بخلاف ما كان سائدا من قبل، فعلى سبيل المثال: كان الذى يدير السفن الشراعية العظيمة التى يضمها الأسطول الأسبانى (الأرمادا) هم البحارة بينما النبلاء هم الذين كانوا يحاربون. وكان هناك تفرقة بين كل من النبلاء والبحارة ولا يمكن لأى منهم أن يقوم بدور الأخر مما كان يضعهم فى وضع حرج فى أى معركة بحرية. ورغم ذلك فإن السفن الشراعية الأسبانية كانت أفضل بكثير من السفينة الحربية ذات المجاديف والتى يقوم بتشغيلها جمهور العبيد.

فى نفس الوقت الذى كان فيه طاقم السفينة الإنجليزية يتكون من بحارة

أحرار كانت الجيوش المسلحة فـي الشـرق الأوسـط تعتمد علـى المـاليك والانكشارية والعبيد. لقد كان الرق سواء كان عسـكريا، أو اقتصاديـا، أو معيشيا أو جنسـيا، جـزءا علـى المسـتوى الفعلـى، مـن أى حضـارة عرفهـا التاريخ. وقد كان للغرب فضل المبادرة فى القضاء على نظـام الـرق، وظـل الغرب متفردا فى ذلك لزمن طويـل. وبالتـأكيد، كـان لهـذا التحـول آثـاره الهائلة على كل من الأسرة، والاقتصاد، والمجتمع، والسياسة.

وربما يكون الأكثر إثارة للدهشة، فى قصة إرسال السفير إلى السـلطان العثمانى، والذى حدا بالمعاصرين لهذه القصة من الكتاب الأتراك أن يعلقـوا عليه، هو أن الملك الذى قام بإرسال السفير "امرأة"، فمجرد وجـود ملكـة حاكمة كان يعد ابتكارا غريبا ومزعجا. أن وضع المرأة فى الغرب ـ آنذاك ـ كان بعيدا عن وضع المساواة مع الرجال، ولكنه كان متمـيزا عـن وضـع المرأة فى معظم المجتمعات غير الغربية. لقـد رصـد معظـم الرحالـة المسـلمين الذين ارتحلوا إلى أوروبا، تقريبا، قبل العصـر الحديـث، والـذى يعتبر مثيرا للدهشة بالنسبة إليهم، كيف تتمتع المرأة هناك بالحرية والتميز.

وتعتبر الأسرة النووية، أهم عامل فى بـزوغ الفرديـة الغربيـة، وصعـود وانتشـار الحضـارة الغربيـة. لقـد اسـتطاع كمـال أتـاتورك، أول رئيـس للجمهورية التركية، أن يفهم جيدا الفرق المجتمعى بـين القيـم الغربيـة وقيـم مجتمع الحريم الشرقية، حيث بدأ فـى خطاباتـه منـذ منتصـف العشـرينيات، يتحدث عن حقوق المرأة. فنجده يعلن بوضوح وإيجاز، "أن مهمتنا الآن هى اللحاق بالعالم الحديث. ونحن لن نلحق به إذا قمنا بتحديـث نصـف المجتمـع فقط".

لم تكن اليزابيث ملكة تنفـرد بـالحكم بـل كـان لديهـا "برلمـان". ومـرة أخرى لقد كان ذلك أمرا جديدا أو غريبا بالنسـبة للشـرق الأوسـط، فلـم

يكن يذكر شيء من هذا القبيل في تركيا - آنذاك، صحيح أن البرلمان الذى كان يخضع لحكم اليزابيث لم يكن ذا سلطة كبيرة، إلا أن سلطاته كانت تزداد، ولم يمر وقت كبير حتى أرسى للمرة الأولى وإلى الأبد مبدأ سلطان الشعب من خلال نوابه المنتخبين وليس التاج.

لقد كانت إنجلترا هى موطن السفينة، إنجلترا: الملكة إليزابيث وشركة الشرق. كانت أيضا بلد شكسبير، وبيكون، وفيما بعد اسحق نيوتن؛ إنها البلد الذى شهد النهضة والإصلاح وبعد ذلك بقليل الثورة البرلمانية. كل هذا هو أساس ما يمكن تسميته، بكل تأكيد، المركزية الغربية للغرب

(٣) ما الذى يجب عمله؟

حينما يتحقق الناس من أن الأمور تسير فى الاتجاه الخاطئ، فإنهم يطرحون على أنفسهم سؤالين. الأول؛ ما هو الخطأ فيما فعلناه؟ والثانى؛ من الذى فعل ذلك بنا؟ بينما يقودنا السؤال الثانى إلى نظريات المؤامرة، وعقدة الاضطهاد. فإن السؤال الأول يقودنا إلى سبيل آخر فى التفكير هو: كيف يمكن لنا أن نصوب الخطأ؟

منذ بداية القرن الثامن عشر والشرق الأوسط يحاول الإجابة عن هذا السؤال، وأنتجت العديد من الأدبيات تحمل أسئلة حول كيفية تصويب الخطأ؟، وكيف يمكن حماية هذه الدولة؟ كيف يمكن حماية المجتمع من قوة الكفرة؟ فى هذا السياق، طرحت جميع الحلول، غلب على معظمها إما المحاكاة، الزائفة من جانب، أو على الأقل تبنى الأساليب العسكرية، من جانب أخر، والخاصة بالعدو، ألا وهو الغرب الحديث.

ومنذ تاريخ مبكر، تبنى كل من الحكام العثمانيين وحكام الشرق الأوسط سياسة واعية من أجل الإصلاح. وبالطبع لم يطلقوا عليها "تغريباً".

فلقد رفضوا هذه الفكرة. واستخدمت تعبيرات كثيرة لتشويه ذلك منها: "التفرنج العربى"، أو "تقليد مسالك الفرنجة"، أو "التسمم الغربى" والذى عبر عنه بالتعبير الفارسى gharbzadagi، ومع ذلك فإن الكثير من الناس برهنوا على أن هناك وعيا ناميا بالحاجة إلى تغييرات شاملة على أوسع نطاق.

لقد مثلت "هزيمة فيينا" بداية لمرحلة جديدة. فلقد أدرك التفوق العسكرى للدول الغربية الأمر الذى تبعه خطط ومحاولات من أجل التحديث. وتصور المصلحين الأوائل أن تحقيق عملية التحديث يتم بامتلاك الأسلحة الأوروبية والأساليب الحربية الخاصة بهم وإن ذلك يتم بتعيين معلمين وقادة ميدانيين من المرتزقة الأجانب كذلك بشراء الأسلحة الأوروبية. وكانت أوروبا مستعدة تماما لتقديم هذه الخدمات. ففى وقت الحملات الصليبية نجح التجار الأوربيون المسيحيون فى إتمام صفقات مزدهرة مع العرب المسلمين لبيعهم أسلحة يستخدمونها ضد الصليبيين. ويذكر التاريخ أنه حتى فى أثناء التقدم العثمانى نحو أوروبا كان هناك حانوت إنجليزى فى اسطنبول لبيع الإمدادات العسكرية. وسرعان ما لحقت العديد من الدول الأوروبية بمسيرة الوجود التجارى الأوروبى، فهاهم رجال البنوك الأوروبيين بدوا مستعدين لتمويل الواردات والمشتروات العثمانية. وهكذا بدأ تاريخ طويل من "الارتباط البناء"

ولكن العديد من حكومات الشرق الأوسط أدركوا، آخر الأمر، أن جميع الأسلحة التى تمكنوا من الحصول عليها ، لم توفر لهم بناء جيش حديث يكون قادرا على مواجهة جيش الغرب، وأن يفرض عليه شروطه، وعليه فلقد توصل المصلحون العثمانيون وآخرون غيرهم، بعد ذلك، إلى عدد من الاستنتاجات المهمة. فهم ولأنهم فى احتياج إلى أسلحة جديدة

على شاكلة أسلحة الفرنجة، ولأن الاعتماد على استيرادها أمرا غير مضمون، فإن ذلك يستدعي إنشاء صناعة سلاح حديثة وطنية. كذلك هناك حاجة إلى ضباط لقيادة الجيوش طور التكوين لأنه بالقطع لا يمكن الاعتماد على المغامرين والمرتزقة. وعليه، لابد من إصلاح نظام التعليم لكى يكون قادرا على تخريج ضباط مدربين. يضاف إلى إنهم صاروا يدركون مدى الحاجة إلى وجود طرق ووسائل اتصال لإدارة هذه الجيوش وتحريكها، لذا كان عليهم - وكما هو معتاد بمعونة الغرب - ما صار يعرف الآن بالبنية الأساسية.

ومع حلول القرن التاسع عشر، اكتسب الإقرار بتفوق الغرب العسكرى، والحاجة إلى التحديث الغربى للقوات المسلحة، ملمحا ثقافيا. فعلى مدى هذا القرن (١٩)، نجد قادة الشرق الأوسط يلبسون جيوشهم زيا أوروبى الطابع يشمل السترات والبنطلونات والخوذات، كذلك فإن التنظيم الداخلى لهذه الجيوش يأخذ بالتنظيم الأوروبى من حيث التشكيلات المتعارف عليها لديهم مثل: الكتائب واللواءات والسرايا، والوحدات، ويطبقون نفس التراتبية الأوروبية بالنسبة للرتب العسكرية والتى تتدرج من الرقيب وحتى المشير، ويأتمرون بنفس الطريقة. ويتضح مما سبق أن ذلك يعد خيارا ثقافيا أكثر من كونه مجرد خيارات إجرائية تم إتباعها، وقد استمر هذا الخيار حتى يومنا هذا، فلم تزل جيوش الشرق الأوسط، حتى فى الدول المناهضة للغرب، ترتدى أزياء أوروبية الطابع[1].

---

(١) ويتماثل هذا الأمر، أيضا، بين المدنيين، ففى خارج البيئة البدوية العربية، تصبح الأزياء الأوروبية هى الأزياء الشائعة والمعتادة بالنسبة للرجال، وإن كانت ليست كذلك بالنسبة للنساء (الرجال، بالطبع، وليس النساء هم الذين يفرضون هذه الخيارات) . ويذكر أنه حتى الممثلين الدبلوماسيين للجمهورية الإسلامية =

لم تمنع الإصلاحات العسكرية، والتى ربما تكون قد تأخرت، من ترسيخ الهيمنة الغربية، حتى بعد رحيل القوى الإمبريالية الغربية، بل لم توف حتى باستعادة قدر من التكافؤ ولو من حيث المظهر فى درجة كفاءة استخدام القوة العسكرية. ويمكن اعتبار جهود بعض الدول من أجل امتلاك أسلحة الدمار الشامل وهى مبتكرات غربية فى الأساس - محاولة نحو علاج وضعية اللاتكافؤ. وقد تحقق هذه المحاولة دمارا متبادلا، ولكنها لن تحقق النصر أو حتى التكافؤ.

(٤) التعويذة السرية

حاول الكثيرون كشف التعويذة السرية لقوة الغرب. أرجعها البعض ليس للجانب العسكرى على وجه الخصوص، وإنما إلى الثورة الصناعية والتطور الاقتصادى بشكل عام؛ كما عزاها البعض إلى كل من العلم والتكنولوجيا اللتين جعلتا الغربيين بهذه القوة. وأخيرا رأى البعض أن سر قوة الغرب يكمن فى مؤسساتها المتميزة وفى الحكومة الدستورية والنيابية.

وقد أدى الرأى الأخير، تحديدا، إلى ظهور مدرسة الفكر الحديث التى تربط بين طبيعة المجتمع الغربى وبين كل من الحرية الفردية، وحقوق الإنسان، والحكومة المقيدة (الحكومة المقيدة بسلطة نواب الشعب المنتخبين)، أى وبكلمة واحدة: المواطنة؛ التى تعنى حق المواطن فى المشاركة فى تشكيل، وتوجيه الحكومة وإقالتها إن لزم الأمر.

مع الوقت، أصبحت الحكومة الدستورية - النيابية، فى عصرنا هذا، جزءا أساسيا من نمط الحياة الغربية وبالتالى التحديث الغربى. وتجدر الإشارة

= الإيرانية يرتدون بزات مثل الأوروبيين. فقط، يعد عدم ارتدائهم لرباط العنق رمزا لرفض قيود الحضارة الغربية.

إلى أن الأمر لم يكن على هذا النحو - المثالى - دوما، فعلى سبيل المثال، يثبت التاريخ الحديث أن كثير من المناطق الأوروبية الرئيسية قد جمعت بين كونها غربية وحديثة فى آن واحد - ولفترة زمنية - وذلك تحت مظلة نظام أوتوقراطى ومستبد. وبالتأكيد فإنه ليس من المعقول توقع قدوم وافدين جدد إلى الحداثة الغربية لتولى مسئولية إدارة المؤسسات الغربية بطريقة أسرع وأفضل من بعض الأمم الأوروبية العريقة. وفى نفس الوقت، يوضح نجاح بعض، ما يسمى، "بالنمور الأسيوية"، أن الدولة يمكن أن تحدث وأن يكون هذا التحديث فعالاً، بدون الديمقراطية وحقوق الإنسان واعتبارهما معوقان لهذا التحديث.

ويمكن القول، انه بينما لا يمكن ممارسة الديمقراطية، اليوم، بدون تحقق الحداثة فإنه يمكن، قطعا، امتلاك الحداثة بدون الديمقراطية.

على النقيض، فإننا نجد أن فكرة الحكومة المقيدة فكرة أصيلة وجوهرية فى الإسلام. كذلك فإن مبدأ "أن الحاكم ليس فوق القانون، بل يخضع للقانون شأنه شأن أقل رعاياه شأنا" من المبادئ المحورية فى التعليم الإسلامى الكلاسيكى حول الدولة. إلا أن الحكم الأوتوقراطى الغير مروض والمنتشر فى كثير من العالم الإسلامى اليوم يمكن حسبانه إلى حد كبير نتيجة للتحديث، الأمر الذى أدى إلى أبطال مشاركة القوى الوسيطة وعزز من قوة السلطة المطلقة. الأمر الذى أدى إلى أن يستحوذ ادنى ديكتاتور على السلطة المطلقة بصورة تفوق الخيال مقارنة بخلفاء وسلاطين الماضى.

ومن الأفكار الأكثر قبولا حول أسباب التحديث الغربى، وإن كان لا يمكن حسبانها مقنعة بالمطلق، هو هذه الفكرة التى تنسب نجاح التحديث الغربى إلى الفصل بين الكنيسة والدولة. هذا الفصل الذى تم على جانبين: الأول بين المؤسسات السياسية وبين مؤسسات الكنيسة، والثانى بين الفكر

العلمى والفكر الدينى، وقد صارت هذه الفكرة مقبولة باعتبارها ركيزة أساسية للحداثة الغربية. ومما لا شك فيه إن تحقيق هذا الفصل فى بعض الدول الغربية الأكثر حداثة قد تم إما بواسطة التشريع الدستورى كما فى الولايات المتحدة الأمريكية وفرنسا، أو من خلال الاتفاق الضمنى بين الجانبين (الكنيسة والدولة) كما فى المملكة المتحدة والملكيات الإسكندنافية، وإن كان الفصل قد جاء متأخرا بالنسبة للمجموعة الأخيرة من الدول (المملكة المتحدة والملكيات الاسكندنافية) فى سياق التطور الذى حدث لكل من الديمقراطية والحداثة معا، كما أنه فى بعض الدول الغربية الأخرى التى نجحت فى مسيرة التحديث لم يزل الدين بل وحتى الأحزاب القائمة على أسس دينية، يلعبون دورا هاما ومميزا. وتعد خبرة إسرائيل، وهى دولة ديمقراطية حديثة ذات مكون دينى هام فى هويتها، من الخبرات الحديثة والقصيرة العمر وإن كانت جديرة لأن تكون قاعدة للنقاش. وربما يمكن أن نقول نفس الشىء بالنسبة للأحزاب المؤسسة على أسس دينية فى الديمقراطيات التى تأسست بعد الحرب العالمية الثانية فى دول المحور. وبالقطع فإن دور الدين فى علاقته بكل من الديمقراطية والحداثة فإنما يختلف بقدر لا يستهان به من دين لآخر، ومن دولة لأخرى، والشاهد على ذلك هو اختلاف فى الأدوار التاريخية لكل من البروتستانتية والكاثوليكية والأرثوذكسية فى الدين المسيحى عن بعضها البعض، كذلك اختلافهم عن كل من اليهودية والإسلام. خلاصة القول، إن خضوع كل من الدولة والعلم للسيطرة الدينية، أيا كان هذا الدين، هو أمر لا يتوائم مع الحضارة الغربية وخصائصها المميزة فى الحداثة.

(٥) تغريب الجماهير

فى إطار معرفة ودراسة كيف أثر الغرب على عامة الناس فى الشرق الأوسط، طرحت باحثة تركية شابة تدعى Miige Gocek، فكرة فحص

المخازن التى كانت تستخدم لحفظ المقتنيات الخاصة بالأفراد الذين توفوا فى القرن الثامن عشر فى أسطنبول قبل توزيعها على الورثة، خاصة وأن مئات الآلاف من هذه المخازن تعود إلى القرون الأولى من الحكم العثمانى. وقامت الباحثة الشابة بفحص هذه السجلات راصدة ما تحتويه أخذة فى الاعتبار الفترات الزمنية المختلفة التى دونت فيها هذه السجلات، كذلك راعت اختيار عينات تمثل كل عناصر المجتمع، وركزت فى البحث عن التحف والأدوات الغربية. وقد تضمن ما عثرت عليه أثناء بحثها أعدادا من التلسكوبات والنظارات.

بالإضافة إلى عدد من الكراسى والأثاثات المتنوعة، وخرائط وكتب. وقد لاحظت الباحثة أن الأسلحة النارية: المسدسات والبنادق والساعات: المحمولة والمعلقة من أكثر الأشياء التى تم حصرها.

يرجع قياس الوقت فى الشرق الأوسط إلى بابل القديمة، إلا أن ساعات الحائط والساعات المحمولة الشخصية قد أدخلتا قيمة دقة قياس الوقت لم يكن معروفا من قبل. لقد أصبح من الممكن ترتيب البرامج الزمنية وساعات العمل المكتبى وأخذ مواعيد لإتمام المقابلات، إنه نمط من الحياة لم يزل غير مستوعب كاملا فى منطقة الشرق الأوسط. متغير أخر ذا أصل غربى تم الأخذ به فى الشرق الأوسط ألا وهو التقويم السنوى. يذكر أن كل الحضارات قد ابتكرت طرقا خاصة بها لقياس الأيام والشهور والسنوات، ولكن فى عصرنا هذا، فإن التقويم المسيحى الغربى والمعروف باسم: التقويم الجريجورى، والذى يقسم الزمن إلى الميلاد وما قبل الميلاد، قد نال قبول غالبية العالم.

ابتكار غربى أخر، يتوازى من حيث الأهمية مع ابتكار التقويم، هو التحديد الجغرافى للكرة الأرضية لقد قسمت الخبرة الأوروبية فى المجال

الجغرافى، والموروثة عن اليونانيين، نصف الكرة الشرقى إلى ثلاث قارات أعطتها أسماءا: أوروبا، وآسيا، وأفريقيا؛ وقد أضاف راسمو الخرائط الأوروبيون لاحقا، أمريكا. ولم يكن كل من الأسيويين، والأفريقيين وأهل أمريكا، قبل اكتشاف كولمبس للقارة الأمريكية، يدركون ما عينته لهم أوروبا بشان تحديد وحدات إقليمية تعبر عنهم، ولكن، ومع بداية السابع عشر، بدأ العثمانيون وأخرون فى الشرق الأوسط يقبلون بهذا التقسيم الأوروبى للكرة الأرضية.

إن ما قامت به أوروبا لا تقف أهميته عند مسألة تسمية القارات، وإنما إلى ما هو أكثر أهمية من ذلك ألا وهو تحديد تخوم الدول ورسم الحدود فيما بينها. وترجع أهميتها إلى جدتها، ففى الماضى كانت المملكة تمتد إلى الحد الذى يستطيع فيه حاكمها جمع الضرائب، أما الآن فإن ما قامت به أوروبا يكرس فكرة جديدة هى أهمية التحديد الدقيق للحدود الجغرافية بين الدول. وبالطبع فان لهذا التحديد أثره المعتبر على فكرة الدولة، وما يترتب عليها من هويه مشتركة واندماج بين أولئك الذين يعيشون داخل حدودها.

ولا يقل أهمية عما سبق، ما حدث من اختصار للزمن والمسافة بفعل استحداث وسائل اتصال جديدة مثل القطار والسيارة والطائرة والطباعة ومن ثم إصدار الصحف. وتعد الطباعة من الأمثلة الهامة التى تعكس رفض ما هو حديث. ويذكر أن الطباعة لم تكن اختراعا أوروبيا ولكنها قدمت إليه من الشرق الأقصى، ففى عام ١٤٩٢ طبع وأصدر الحاكم المنغولى لإيران أوراقا نقدية صينية الطابع، لكن السوق لم يتقبلها مما أدى إلى توقف الحركة الاقتصادية آنذاك، وبعد شهرين سحبت الأوراق النقدية وأعيد التعامل بالعملات المعدنية مرة أخرى. أيضا كانت طباعة الكتب مرفوضة رغم أنها

كانت معروفة. فعندما جاء اليهود الأسبان إلى تركيا فى عام ١٤٩٢، بعد أن طردوا من أسبانيا، طالبوا بأن يسمح لهم بتأسيس دور نشر بغرض إنتاج كتب لاستخدامهم الخاص. وقد قامت السلطات بالسماح لهم شريطة ألا يطبعوا أى كتب سواء باللغة التركية أو العربية، أو استخدام الحروف العربية. وقد كان التفسير المعتاد لهذا الشرط هو أن ذلك كان يرى باعتباره تدنيسا للنص المقدس، وربما كان لطائفة النساخ والكتبة دور فى ذلك. وحتى القرن الثامن عشر، كان من غير المسموح به الطباعة بلغة المسلمين، ولم يتغير الموقف إلا بعد تحول أحد اللاهوتيين المجريين إلى الإسلام حيث أدخل الطباعة بلغة المسلمين. وكانت هذه التجربة قصيرة المدة ومحدودة التأثير. واستمرت الطباعة بعد ذلك، ولفترة، مقصورة على الأقليات الدينية: اليهود أولا ثم الطوائف المسيحية المتعددة لاحقا. ومع نهاية القرن الثامن عشر وبدرجة أكثر فاعلية ونشاط خلال القرن التاسع عشر، انتشرت الطباعة بمبادرة من استخبارات الحكومات الأجنبية والإرساليات التبشيرية المسيحية. وخلال فترة وجيزة، ومع حلول منتصف القرن التاسع عشر، استخدمت الطباعة بشكل مكثف وواسع النطاق، لطبع نصوص باللغتين التركية والعربية بالإضافة إلى لغات شرق أوسطية أخرى.

متغير أخر، ربما يكون أكثر أهمية، فى مجال الاتصالات، هو ازدياد سرعة الاتصال، وقد بدأ هذا التحول الهام مع التلغراف. وقد عرف هذا الاختراع فى عام ١٨٥٥ وذلك أثناء حرب القرم، شأنه شأن كثير من الاختراعات والمتغيرات الكبرى التى تنتج بسبب الحرب وتلبية لاحتياجات الحروب. ويسجل لنا التاريخ أن أول تلغراف أرسل من الشرق الأوسط كان عبارة عن بيان رسمى يعلن الآتى: "دخلت قوات الحلفاء إلى سيفاستوبول".

لقد منح مركب: الحرب "الإرسال البرقي".. والمراسلون الأجانب، الشرق الأوسط أداة فعالة تحقق مزيدا من التغريب والتحديث، آلا وهو الصحيفة اليومية. فلم يكن معروفا من قبل إلا الجريدة الرسمية وبعض المطبوعات الخاصة المتفرقة. لقد أحدث الورق بحلوله اليومي وما تضمنه من أخبار وتعليقات تغيرا جذريا فى نظرة الشرق أوسطيين للعالم ولأنفسهم.

(٦) من الذى يتخذ قرار الحداثة ؟

نشأت ثلاثة اتجاهات بين الشرق أوسطيين فى مواجهة الحضارة المغايرة الوافدة من الغرب. يعبر عن الاتجاه الأول فكرة نيبول عن "السوبر ماركت" أو السوق: فنحن نأخذ ما نستطيع أن نكيفه ونستخدمه، دون أن نسمح لأنفسنا أن نصاب بعدوى ديانة نسخت أو حضارة أدنى. وتتبلور هذه النظرة بصورة متشددة، فى وقتنا الحالى من خلال كتابات وأقوال ما يطلق عليهم "الأصوليون الإسلاميون"، الذين يرون فى الحضارة الغربية، وبالأخص الثقافة الشعبية الأمريكية، حضارة غير أخلاقية ومفسدة. فى هذا السياق يأتى اتهام آية الله خمينى، والذين خلفوه فى إيران، للولايات المتحدة الأمريكية بأنه الشيطان العظيم[٢].

أما أنصار الاتجاه الثانى، فإنهم يتحدثون، بتفاؤل، عن التزاوج بين أفضل العناصر فى كل من الحضارتين. فعندما تتلاقى الحضارات ثم

---

(٢) لا يحتاج الأمر إلى جهد المخابرات من أجل تفسير هذه المقولة، خاصة وأنها تم استعارتها من القرآن. وتتحدث آيات القرآن عن الشيطان حيث تصفه بأنه "الوسواس الخناس". الشيطان ليس غازيا، ولا إمبريالى، ولا رأسمالى، ولا مستغل. أنه يقوم بالغواية. ويأتى مع عرائس "باربى"، وبرامج التليفزيون المستفزة والأعلام، والأسوأ من ذلك كله النساء المتحررات.

تتصادم، فإن الناتج عن هذا الصدام لا يكون ناتج تزاوج أفضل العناصر وإنما خليط مشوه من أسوأ عناصر هذه الحضارات.

أما الاتجاه الثالث فيمكن إيجازه في المقولة التالية: لقد شهد العالم حضارات عدة، كل منها نما وازدهر في وقته، ثم اندثر. أما في اللحظة التاريخية الحالية فإنه يوجد حضارة واحدة لم تزل حية. وعلينا الالتحاق بها وإلا أصبحنا غير متحضرين. وقد كان هذا هو الخط الفكرى الذى قنع به كمال أتاتورك وخلفاؤه الإيديولوجيون فى حركة تركيا الفتاة.

ومما لا شك فيه، إن عملية التغيير الحديثة قد تمت بمبادرة الغرب، ولكن هل يعد التحديث غربياً فى أصوله؟ إن الغرب لم يولد مثل أفروديت من زبد البحر، بل أن جانبا كبيرا منه من أصول غير غربية تختلف عن الجذور الإغريقية – الرومانية واليهودية – المسيحية للحضارة الغربية.

لقد صارت طريقة العالم الغربى فى تقسيم التاريخ إلى ثلاث مراحل رئيسية: التاريخ القديم، والتاريخ الوسيط، والتاريخ الحديث، تتبع فى كثير من المناطق الأخرى. فى سياق هذا التقسيم، فإن أوروبا العصور الوسطى تعد مرحلة فارقة انتقالية بين العصر القديم الذى يتمثل فى: اليونان وروما والحضارات القديمة فى الشرق الأوسط وبين الحداثة والتى نمثلها نحن. ولقد كانت هناك ثلاثة طرق للانتقال من العصور القديمة إلى الحداثة، تم تحديدها حيث كان العصر المسيحى الغربى الوسيط أحد هذه الطرق. أما الطريقان الآخران فهما العالم المسيحى الأرثوذكسى اليونانى، وإلى حد كبير أهم هذه الطرق، العالم الإسلامى.

لقد استطاع العالم الإسلامى، مثله مثل العالمين المسيحيين الآخرين، أن يستوعب تراث العصور القديمة وأن يستفيد منه أكثر منهما. لقد حفظ

وترجم العالم الإسلامى الفلسفة اليونانية ونطاق كبير من العلوم اليونانية وذلك قبل أن تكون معروفة فى أوروبا بوقت طويل.

ليس هذا كل شيء، فإن الحضارات القديمة فى البحر المتوسط والشرق الأوسط وأوروبا والهند والصين كانت كلها حضارات محلية، وفى أحسن أحوال : إقليمية أما المسيحية والإسلام فكان لديهما رسالة عالمية، بيد أن الإمبراطورية الإسلامية الممتدة على مدى مساحات كبيرة من آسيا، وأفريقيا وأوروبا، كانت الأولى، حيث خلقت حضارة متعددة الأجناس، ومتعددة الثقافات، وبعبارة أخرى حضارة عبر قارية. لقد امتدت الحضارة الإسلامية أبعد بكثير من أقصى حدود بلغتها الثقافية الرومانية والهيلينية، لذا كان لها أن تستعير وتتأقلم وتضم عناصر هامة مؤثرة من الحضارات البعيدة فى آسيا[٣] لهذا، أسهم الشرق أوسطيون بإسهاماتهم الثرية التى استطاعت أن تشكل الحضارة الوليدة فى الغرب. وربما كان يمكن أن يتسائل بعد ذلك أحد الهنود أو الأفارقة أو الأوروبيين من الذين ينتمون إلى

(٣) نزعم، نحن الأوروبيون، أن التنوع هو أحد الهبات المميزة لمجتمعاتنا الغربية. ويعد ذلك تطورا حديثا، حيث أن المجتمعات الغربية فى معظم تاريخها لا تتسامح مع التنوع على الإطلاق. على الجانب الآخر فإن المجتمعات الإسلامية فى الشرق الأوسط، كانت ذا تنوع واسع، حيث استطاع بشر من أديان وأعراف مختلفة وأنماط حياتية مغايرة أن ينموا قدرتهم على التعايش جنبا إلى جنب، لن أقول بمساواة كاملة ولكن بتسامح معقول ومتبادل. ونتيجة للتوترات التى نشأت ولندرة الفرص فإن هذا الأمر قد تغير للأسوأ فى الشرق الأوسط . فمن الصعوبة بمكان أن يكون المرء متسامحا وهو يعيش تحت التهديد.

فى نفس الوقت فإن القدرة على التعايش والتسامح بين التنوع تزداد بشكل ملحوظ فى العالم الغربى.

أن تقديم أمثلة قليلة يمكنها أن تكون كافية لتوضيح سلامة السبب الذى من أجله يطرحون سؤالهم. فالغربيون يحاولون بطريقة قريبة وقاطعة أن يقنعوا أنفسهم بأن العلم التجريبى قد تطور فى العصور الإسلامية الوسيطة أكثر بكثير مما تطور في العالم القديم. فبينما تمركزت العبقرية اليونانية فى وضع أسس النظريات والفلسفة، فإن المسلمين طوروا العلم التجريبى وسلموا تراثا غنيا كان من شأنه أن يساعد على البدء فى تحديث الغرب.

أيضا، فى المجال الاقتصادى، خاصة فى مجالى التجارة والصرافة (البنوك)، هناك تراث يعتد به يعود إلى العالم الإسلامى وما قبله من تراثات.

لقد تعلم التجار الأوروبيون من أقرانهم المسلمين الأكثر تقدما منهم وذلك على نطاق كبير، ويشهد على ذلك العديد من الكلمات الشرق أوسطية التى تم استعارتها وأصبحت جزءا من اللغات الغربية. فكلمة شيك جاءت من الفارسية، والتعريفة جاءت من العربية، كذلك أسماء العديد من المأكولات والسلع يبرح بأصوله الشرق أوسطية: الكافيار والبرتقال من أصل فارسي، بينما تحفظ كلمتا: يبوح ومقسى والموصلين , Muslin) (Damask أسماء مدن عربية. (الكلمة الأولى تعنى الفولاذ وتتطابق مع اسم مدينة دمشق، والكلمة الثانية وتعنى النسيج القطنى الرقيق وتتطابق مع اسم مدينة الموصل). وعلى مستوى أخر، فإن عددا من المصطلحات الرياضية والفلكية يوضح المساهمة الإسلامية لكل منهما. ويذكر أيضا أن حفظ الكتب وتصنيفها "بمدخلين" يعد اختراعا أوروبيا عظيما، إلا أنه كان من الصعب أن يصير ممكنا بدون الصفر والأرقام التى أحضرها المسلمون إلى أوروبا من الهند، أو بدون الورق وصناعة الورق، كذلك، اللذان استقدمها المسلمون من الصين.

كما يظهر، ومنـذ وقـت مبكـر، تأثيرات الغـرب علـى كـل مـن الفـن والعمارة كذلك انتشار هـذه التأثيرات بسـرعة كبـيرة. ورغـم أن تغريـب الأدب قد جاء لاحقا إلا أنه انتشر بسرعة أيضا. إن النـاتج الأدبـى للغـات العربية والفارسية والتركية، اليوم، فى أكثريته من حيـث الشـكل وإلى حـد مميز من حيث المضمون لم يعد غريبا عن أى اختلاف إقليمى للثقافة الغربيـة الشائعة. وفى الموسيقى، يبدو ان هناك فجوة فى هذا المجال تعد واحـدة مـن أكثر التباينات الثقافية المميزة بين الشرق الأوسط وبـاقى أجـزاء العـالم غـير الغربى. فالأسلوب الفنى الغربى للموسيقى يتم تقديره ويعـرف فـى اليابـان والصين وإلى حد ما فى الهند، بينما لم يزل غريبا فى معظم العالم الإسلامى.

نفس الشيء يجب أن يقال بالنسبة للعلم. فالعلماء فى الشرق الأقصـى وفى كل من جنوب شرق وجنـوب آسيا يشـاركون بنشـاط فـى المشـروع العلمـى الـذى بـات عالميا ولم يعـد بعـد غريبـا. ومـن المؤكـد،، أن علـم الاتصالات الحديثة وتكنولوجياته كان سيصبح أقـل تطـورا بـدون مشـاركة الشرق الأقصى؟ إن مساهمة الأوسط تعد فقيرة مقارنة ببلـدان غـير غربيـة معاصرة، بل وبمقارنة، وبصورة درامية، بمساهمته فى المـاضى. الأمـر الـذى يجب أن يقود الشرق أوسطيين لأن يسألوا أنفسهم لمـاذا تسـلك مجتمعـاتهم بطريقة تختلف عن مجتمعات جنوب آسيا، وجنـوب شـرق آسـيا، والشـرق الأقصى؟ وليس لماذا هم مختلفون عن الغرب؛ كيف يلام الغـرب علـى هـذا الاختلاف؟

وقد يساعد ذلك فى تدعيمنا بتعريف عملى، إن لم يكـن نظريـا، لمعنـى الحداثة. ففى كل عصـر مـن عصـور التـاريخ البشـرى، فـإن الحداثـة، وأى مصطلـح معـادل لـه، تعنـى الطـرق، والمعايـير الخاصـة بالحضـارة السـائدة والآخذة فى الانتشار. فكل حضارة سائدة قامت بفـرض نفسـها. فالممـالك

الهيللينية والإمبراطورية الرومانية، والعوالم المسيحية فـي العصور الوسطى، والإسلام، إلى جانب الحضارات القديمة الهندية والصينية جميعهم قاموا بفرض معاييرهم على مناطق شاسعة وأشعت بتأثيراتها ونفوذها على مناطق أكبر تفوق حدودها الاستعمارية. لقد كان الإسلام أول من صنع تقدما مميزا نحو أن يدرك كرسالة عالمية، ولكن الحضارة الغربية الحديثة استطاعت أن تكون الأولى فـي احتواء الكوكب كله. وكما ميز أتاتورك، يدرك، اليوم، كل من علماء الحاسوب الآلى الهنود، وشركات التكنولوجيا المتقدمة اليابانية أن الحضارة السائدة غربية، وأن المعايير الغربية، بالتالى، هى التى تعرف الحداثة.

لقد كانت هناك حضارات سائدة فى الماضى، ومما لا شك فيه أنه ستكون هناك حضارات أخرى تسود فى المستقبل. لقد دمجت الحضارة الغربية الكثير من الخبرات الحداثية السابقة عليها، وهذا يعنى أنها أثريت بمساهمات وتأثيرات الثقافات الأخرى التى سبقتها فى الريادة. وهى نفسها، الحضارة الغربية، سوف تورث التراث الثقافى الغربى للثقافات التى سوف تليها.

تعليق "استغرابى"
على نص "استشراقى"

سمير مرقس

المصالح ... ولا شئ غير المصالح
وكل حوار معه أو تفكير ضده لا ينطلق
من المعادلة التالية (الغرب = المصالح)،
إنما هو انزلاق وسقوط فى شباك
الخطاب المغالطى التمويهى

محمد عابد الجابرى

(١)

ما ضرورة ترجمة نص: الغرب والشرق الأوسط؟

تعد مقالة "الغرب والشرق الأوسط" لبرنارد لويس، من أهم المقالات التى نشرت مؤخرا، حيث تتناول العلاقة بين الغرب والشرق الأوسط. هذه العلاقة الشائكة والملتبسة عبر سنوات طويلة بل قرون ممتدة، وتنبع هذه الأهمية من أمرين؛ الأول أن كاتبها "برنارد لويس" أحد أهم الأكاديميين الغربيين الذين تخصصوا فى موضوع الشرق الأوسط منذ وقت مبكر. وتعتبر قضايا الشرق الأوسط، والإسلام، والعروبة مجالات بحثه الرئيسية، والتى عالجها فى كتبه ودراساته، ومثلت بدرجة أو أخرى استمرارا "محدثا" للمدرسة الاستشراقية التى ولدت فى الغرب، الأمر الثانى، هو توقيت نشر هذه الدراسة، حيث تتواكب مع ممارسات الغرب للتأكيد على أن العلاقة بينه وبين الشرق، والأوسط منه، هى علاقة "صدام" ويدعم ذلك "بالمواجهة الفكرية" و"بالمواجهة العسكرية على أرضية الإلحاق الاقتصادى".

فى هذا السياق، يدفع (الغرب) بمجموعة من المفكرين، فى إطار المواجهة الفكرية، الذين ولدوا ونموا فى حضن المؤسسات المهيمنة، لترويج مقولات من نوعية "صدام الحضارات"، و"نهاية التاريخ"؛ لتكون بمثابة صياغات فكرية تبرر الاستراتيجيات الاقتصادية والسياسية. وعليه نجد أن "الخصومة" هى الكلمة المفتاح التى تفرض نفسها فى هذه العلاقة ـ علاقة

الغرب بالشرق– فخلق "عدو" يتيح تأكيد الهوية الذاتية لتجاوز التناقضات الداخلية دعما للتماسك الاجتماعى، فالجميع فى حالة "تعبئة" لمواجهة هذا العدو.

وعليه فإن الأطروحة التى يأتى بها مفكر من نوعية "برنارد لويس" بما يحمله من وزن علمى فى إطار الفكر الغربى الأكاديمى والمؤسساتى، كذلك بما يبذله من جهد فكرى يعود للأربعينيات وفى ظل الاستراتيجيات الغربية الكونية، لابد وأن تؤخذ بعناية واهتمام، حيث تعكس رؤية الغرب لنا، وماذا يدبر لنا .. وما الذى يريد أن يمرره ليستقر فى وجداننا وفكرنا. إن نص "الغرب والشرق الأوسط" لبرنارد لويس، من أهم النصوص التى نشرت فى العامين الماضيين التى توضح، بما لا يدعو مجالا للشك، نظرة الغرب لمنطقتنا، وتجيب عن كثير من التساؤلات التى سوف تفيق الكثيرين منا من هذا الانسياق المحموم نحو النموذج الغربى على أرضية التبعية، دون أى سعى داخلى ذاتى لتحقيق النهوض الذى يكفل التعامل المتكافئ مع الغرب. وأتصور أن أول خطوة فى هذا السعى الذاتى هو الاطلاع على الأدبيات التى تعطى لنفسها الحق أن تنظر، وتؤرخ، وترسم الرؤى والصور، وتضع الاستراتيجيات، إنها "قراءة مضادة لقراءة الآخر لنا"، أو بلغة كلاسيكية قراءة، "استغرابية" لنصوص "استشراقية"[1] ربما يسهم ذلك

---

(١) لقد دعا د. حسن حنفى إلى تأسيس علم جديد أطلق عليه "علم الاستغراب" فى مقابل "الاستشراق" وبيان دوافعه، والرد على المركزية الأوروبية، وضرورة التحول من النقل إلى الإبداع ... (لمزيد من التفاصيل يمكن الرجوع إلى : د.حسن حنفى، مقدمة فى علم الاستغراب، الدار الفنية ، ١٩٩١.

مما يستوجب الإشارة أن هناك اتجاهات فكرية (مثال لها: هاشم صالح وهو كاتب سورى مقيم فى فرنسا تخصص فى ترجمة كتابات محمد أركون، راجع عن =

فى أن نملك زمام المبادرة.

إن الانفتاح على ما يكتبه الآخر عنا أمر غاية فى الأهمية خاصة إذا كان يحاول تشكيل مستقبلنا حسب أهدافه واستراتيجياته وبشروطه، فربما يدفعنا ذلك إلى أن نغير من واقعنا ومن "أنفسنا".

(٢)

نظرة عامة على الماكينة الفكرية الغربية : "الاستشراقية تحديدا"

بداية، لا يمكن قراءة النص الذى قمنا بترجمته والتعليق عليه (الغرب والشرق الأوسط)، بمعزل عن الماكينة الفكرية الاستراتيجية الغربية، "المناطقية"، حسب المصطلح العلمى المعاصر، الاستشراقية سابقا، فالخط

= الاستشراق وبعض أمور ثقافتنا، جريدة الحياة اللندنية ثلاث حلقات – ١١، ١٢، ١٣/٤/١٩٩٥)، ترى فى علم الاستغراب أنه لن يغير الغرب، وأنه يرتد علينا بأفدح الأخطار، انطلاقا من مقولة : كيف لعلم الاستغراب أن ينهض على أسس قوية إذا كنا عاجزين حتى الآن عن استيعاب الثورات اللاهوتية والابستمولوجية والفلسفية للفكر الغربى، وإذا كنا عاجزين عن أحداث مثلها فى ساحة الفكر العربى؟ وكيف يمكن لنا أن نقف موقف الند للغرب إذا كنا لا نمتلك أبسط المقومات لذلك؟ ... فأخطر شئ فى هذا المجال هو أن يخطئ الإنسان فى تحديد موقعه فيتوهم أنه فى المقدمة، فإذا به فى المؤخرة أو ربما غير موجود على الإطلاق، أين هو إسهامنا فى العلم المعاصر (فى العلوم الإنسانية والعلوم الدقيقة وتطبيقاتها التكنولوجية) ... إذا كان المقصود بعلم الاستغراب دراسة الفكر الأوروبى والاطلاع على مراحله الأساسية ونقل منهجياته فى البحث العلمى وتطبيق ذلك على ماضينا وحاضرنا لإضاءة مشاكلنا فليس عندنا مشكلة فى تبنيه. بالطبع هذا المنهج المشروط الذى ينطلق من وضعية أدنى يحتاج إلى مراجعة ولا يمنع من أن نقرأ ما يكتبه الآخر وأن ننقد ونرشح ...

الممتد والمستمر الذى يميز إنتاج هذه الماكينة، هو أن الغرب هو النموذج الذى يجب أن يحتذى. فمثلا أطروحة "نهاية التاريخ"، تتحدث عن الانتصار الحاسم للغرب، وللنموذج الليبرالى الذى كان طرفا فى صراع مع أطراف أخرى، حيث استطاع أن يحسم هذا الصراع لصالحه فى النهاية، كذلك نجد أطروحة "صدام الحضارات" تحذر النموذج الغربى المنتصر من خصومه، ومن الأطراف التى يمكن أن تمثل تحديا له، وعليه التأهب لفرض النموذج الغربى، والأمريكى تحديدا، بشتى الوسائل.

وفى نصنا المترجم، نجد أطروحة لويس، والتى خص بها الشرق الأوسط (والإسلام فيه) وموقعه من هذا الصراع، وكيف أنه حسم ضمنا ومنذ قرون، ومن ثم ضرورة تبنى نموذج الطرف المنتصر، حيث إن الطرف المنتصر، وبحسب النص: "الحضارة السائدة تفرض نموذجها"، ولا يخفى أن هذا التبنى هنا يتم "قسرا" لا "اختيارا". هذا هو جوهر مقالة "برنارد لويس" ولكننا وحتى نصل إلى ملاحظاتنا الكاملة حول النص لابد لنا أن نلقى الضوء، بإيجاز، على أمرين.

الأول: أطروحات برنارد لويس فى إطار الكتابات الاستشراقية.

الثانى: منهج برنارد لويس فى الكتابة وقراءة لبعض أفكاره.

أولا: أطروحات برنارد لويس فى إطار الكتابات الاستشراقية.

يعد "برنارد لويس" أحد أهم الذين تصدوا للكتابة عن "الشرق"، الأمر الذى دعا بالبعض أن يصفه "بإمام المستشرقين المعاصرين". وبالفعل هو حلقة هامة، جدا، من حلقات سلسلة طويلة من المفكرين المستشرقين، الذين انتظموا فى الكتابة عن الشرق، بل وصار الشرق هو همهم الأول. وقد خص "لويس" الشرق الأوسط، تحديدا، معظم كتاباته. ومن العسير

الاقتراب من كتاباته بمعزل عن الكتابات الاستشراقية، وهو أمر يستلزم منا بداية أن نعرف ماذا نعني بالكتابات الاستشراقية.

(أ) مدخل إلى الكتابات الاستشراقية.

الكتابات الاستشراقية هي الكتابات العلمية التى تتناول الشرق أو عالم الشرق، والتي كتبها نفر من الباحثين الغربيين. وقد بدأت هذه الكتابات منذ بدأ الغرب يعرف طريقه إلى منطقتنا فى إطار التوسع التجارى الغربى الذى بدأ أوروبيا. ومن المتفق عليه أن هذه الكتابات أنتجت لتلبى الحاجة المعرفية لهذا التوسع. فالأوروبى "التوسعى" كان لابد له من أن يعرف جيدا المناطق التي ينتشر فيها، وتمثل فى المقام الأول مصلحة اقتصادية وسياسية له، لقد ولد الاستشراق فى الغرب، وإن "كانت مادته: الشرق"[٢]. ولا يختلف كل من تصدى لدراسة ظاهرة الاستشراق على التأكيد على العلاقة العضوية بين التطور الرأسمالى الأوروبى والتوسع الخارجى وبين الكتابات الاستشراقية، ذلك بداية من أنور عبد الملك عندما نشر مقاله الشهير "استشراق فى أزمة" [٣] عام ١٩٦٣، وسلط الضوء على الكتابات الاستشراقية موجها حديثه للمستشرقين قائلا: "... إن بداية استشراقكم تزامنت مع بداية فتوحاتكم"، ومرورا بمجموعة كبيرة من الكتاب والمفكرين من جميع التيارات الفكرية، ووصولا لذروة هذه الكتابات على

(٢) إبراهيم محمد محمود، كيف ينظر المثقف العربى إلى الاستشراق؟، المستقبل العربى، عدد ١٣٧، يوليو ١٩٩٠، ص٥٠.

(٣) Anwar Abd El- Malek, Orientalism in Crisis, Diogenes no. 44, 1963, PP. 102 – 113

يد إدوارد سعيد (وكانت له معارك فكرية هامة مع "لويس" سوف نعرض لها لاحقا). وللتدليل على هذه العلاقة التى أشرنا إليها يذكر طيب تزينى، في معرض دراسته لظاهرة "المركزية الأوروبية" وتكونها التاريخي، كيف ولدت حركة الاستشراق، حيث يقول[٤]: "... فالاستعمار العسكرى المسلح (وهو ما يسمى بالاستعمار القديم)، والاستعمار الاقتصادى والثقافى (وهو ما يسمى عادة بالاستعمار الجديد)، يشكلان، فى الحقيقة، وجهين لواقع واحد، هو الاستعمار الرأسمالى الذى ارتبط نشوؤه بنشوء المجتمع الرأسمالى الصناعى فى أوروبا الحديثة، ومولد الإمبريالية. إن لهذا الطرح للمسألة أهمية قصوى فى فهم واستيعاب المصادر الموضوعية التى انطلقت منها حركة الاستشراق. وربما كان صحيحا إلى حد بعيد أن نشوء هذه الحركة قد ارتبط بآفاق "الحرب النفسية"، العامة الاستعمارية والإمبريالية، التى أخذت تتكون وتتبلور بالتوازن والتعاضد مع تعاظم وتأثر الصراع الطبقى فى تلك البلدان ومع اتساع حركة التغلغل الرأسمالى فيما نسميه بلدان "التشكيلات الاجتماعية المتعددة" .. إلا أن تزينى يستدرك فيقول "ومن اليقين أننا سوف نقترف خطأ منهجيا كبيرا، فيما إذا نظرنا إلى حركة البحث الاستشراقى فى التاريخ والتراث الشرقى، والعربى منه خصوصا، على أنها متجانسة، ذات نسيج نظرى فكرى وسياسى واجتماعى واحد. إذ أن عدم التجانس هذا من طبائع الأمور فى مجتمع طبقى".

---

(٤) طيب تزينى، مشروع رؤية جديدة للفكر العربى؛ منذ بداياته حتى المرحلة المعاصرة، الجزء الأول: من التراث إلى الثورة: حول نظرية مقترحة فى قضية التراث العربى، دار دمشق ودار بيروت، دمشق بيروت ١٩٧٨، ص٥٣٠ وما بعدها.

ويجمل صادق جلال العظم رؤيته فى أن الاستشراق ظاهرة "أفرزتها القوى الحية لتاريخ أوروبا البورجوازية فى العصر الحديث"[٥]، وهو يؤرخ هنا للاستشراق كونه مؤسسة سياسية بنيت من أجل البورجوازية الصاعدة التى كانت تهدف إلى تجاوز حدودها القومية مستخدمة التغطية المعرفية أو المسح الأنثروبولوجى لدعم مصالحها.

وعلى الجانب الإسلامى نجد هشام جعيط، وأحمد شلبى، ومحمد عمارة، وآخرين يجمعون على أن الاستشراق موجه لتفتيت الإسلام من خلال معرفته وعزله عن التاريخ بتشويهه. بيد أن ذروة المقاربات الخاصة بالاستشراق جاءت على يد ادوارد سعيد من خلال كتابه المرجعى الهام "الاستشراق"[٦]. ففى هذا الكتاب يضع يده على طبيعة وأهداف الاستشراق المعاصر وكواليسه، كونه يعيش فى الغرب ويدرك اللحظة التاريخية التى يمر بها الاستشراق، لحظة الهيمنة الغربية المطلقة والتى ضمنت للاستشراق أن "يتجدد"، وعليه نجده يضع يده على نقاط هامة فى مؤلفه حول الاستشراق نقتطفها كما يلى:

(١) إننى أعنى بالاستشراق عددا من الأشياء هى جميعا، فى رأيى، متبادلة الاعتماد إن الدلالة الأكثر تقبلا للاستشراق دلالة جامعية، أكاديمية، وبالفعل فإن الصفة ما تزال مستخدمة فى عدد من المؤسسات الجامعية، فكل من يقوم بتدريس الشرق، أو الكتابة عنه، أو بحثه – ويسرى ذلك

---

(٥) صادق جلال العظم، الاستشراق والاستشراق معكوسا، دار الحداثة، بيروت ١٩٨١، ص٩.

(٦) إدوارد سعيد، الاستشراق : المعرفة، السلطة، الإنشاء، ترجمة كمال أبو ديب، مؤسسة الأبحاث العربية، بيروت، ط٢، ١٩٨٤.

سواء أكان المرء مختصا بعلم الإنسان أو بعلم الاجتماع أو مؤرخا، أو فيلولوجيا، فى جوانبه المحددة والعامة على حد سواء، هو مستشرق. وما يقوم هو/ هى بفعله هو استشراق. صحيح أن المصطلح "الاستشراق"، بالمقارنة مع الدراسات الشرقية أو الدراسات الإقليمية أقل تفضيلا اليوم لدى المختصين لسببين اثنين: كونه غائما وعاما إلى درجة مفرطة، وكونه يتضمن الموقف التنفيذى السلطوى للاستعمار الأوروبى فى القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين - بيد أن الكتب ما تزال تكتب، والمؤتمرات تعقد، ومحرقها الرئيسى "الشرق"، والسلطة المرجعية فيها المستشرق فى قناعه الجديد أو القديم. والنقطة الدالة هى أن الاستشراق، حتى إذا لم يستطع البقاء كما كان ذات يوم، يستمر فى الحياة جامعيا عبر معتقداته المذهبية وأطروحاته عن الشرق والشرقى. (ص٣٨).

(٢) فالاستشراق أسلوب من الفكر قائم على تمييز وجودى، ومعرفى بين الشرق (وفى معظم الأحيان) "الغرب". وهكذا، فقد تقبل جمهور كبير جدا من الكتاب، وبينهم شعراء، وروائيون، وفلاسفة، ومنظرون سياسيون واقتصاديون، وإداريون استعماريون، التمييز الأساسى بين الشرق والغرب بوصفه نقطة الانطلاق لسلسلة محكمة الصياغة من النظريات، والملاحم، والروايات، والأوصاف الاجتماعية، والمسارد السياسية التى تتعلق بالشرق، وسكانه، وعاداته وعقله ، وقدره، وما إلى ذلك (ص٣٨).

(٣) إذا اتخذنا من أواخر القرن الثامن عشر نقطة للانطلاق محددة تحديدا تقريبيا، فإن الاستشراق يمكن أن يناقش ويحلل بوصفه المؤسسة المشتركة للتعامل مع الشرق، التعامل معه بإصدار تقريرات حوله،

وإجـازة الآراء فيـه وإقرارهـا، وبوصفـه، وتدريسـه، والاستقرار فيـه، وحكمه: وبإيجاز، الاستشراق كأسلوب غربي للسيطرة علـى الشـرق، واستبنائه، وامتلاك السيادة عليه. (ص٣٩).

(٤) فقد احتل الاستشراق مركزا هو من السيادة بحيث إننـي أؤمـن بأنـه ليس في وسع إنسان يكتب عن الشرق، أو يفكر فيه، أو يمارس فعلا متعلقاً به أن يقوم بذلـك دون أن يأخذ بعين الاعتبـار الحدود المعوقـة التي فرضها الاستشراق على الفكـر والفعـل. وبكلمـات أخـرى، فإن الشرق، بسبب الاستشراق، لم يكن (وليس) موضوعـا حـرا للفكـر أو الفعل. ولا يعنى هذا أن الاستشراق، بمفرده، يقرر ويحتم ما يمكـن أن يقال عن الشرق، بل أنه يشكل شبكة المصـالح الكليـة التـي يستحضر تأثيرها بصورة لا مفر منها فى كل مناسبة.(ص ٣٩).

(٥) ولذلك، فإن الاستشراق ليس مجرد موضوع أو ميدان سياسى ينعكـس بصورة سلبية فى الثقافة، والبحث، والمؤسسات، كما أنه ليس مجموعة كبيرة ومنتشرة من النصوص حول الشرق، كما أنـه ليس معبرا عـن، وممثلا لمؤامرة إمبريالية "غربية" شنيعة لإبقاء العالم "الشرقي" حيث هـو. بل إنه، بالحرى ، توزيـع للوعـى الجغرافـى إلى نصـوص جمالية، وبحثيـة واقتصادية، واجتماعية، وتاريخية، وفقه لغويـة؛ وهـو إحكـام لا لتمييز جغرافـي أساسـي وحسـب (العـالم يتـألف مـن نصفين غير متسـاويين، الشرق والغرب) بل كذلك لسلسلة كاملة من "المصالح" التـى لا يقـوم الاستشـراق بخلقهـا فقـط، بـل بالمحافظـة عليهـا بوسائل كالاكتشـاف البحثى، والاستبناء الفقه لغوى، والتحليل النفسى، والوصـف الطبيعـى والاجتماعى، وهو إرادة، بدلا من كونه تعبيرا عن إرادة، معينـة أو نيـة معينة لفهم ما هو، بوضوح، عالم مختلف (أو بديل وطـارئ" والسـيطرة

عليه أحيانا والتلاعب به، بل حتى ضمه، وهو، قبل كل شئ، إنشاء ليس على الإطلاق على علاقة تطابقية مباشرة مع القوة السياسية فى شكلها الخام، بل أنه لينتج ويوجد فى وضع تفاعل غير متكافئ مع مختلف أنماط القوة، مكتسبا شكله إلى حد ما من تفاعله مع القوة السياسية كما هو الحال فى تفاعله مع مؤسسة استعمارية أو إمبريالية)، والقوة الفكرية (كما هى الحال مع علوم تحتل مركز الصدارة مثل الألسنية المقارنة، .. أو أى من علوم السياسة الحديثة)، والقوة الثقافية (كما هى الحال مع المذاهب السنية. وشرائع الذوق، والنصوص، والقيم)، والقيم الأخلاقية (كما هى الحال مع أفكار تدور حول ما نفعله "نحن" وما يعجزون "هم" عن فعله أو فهمه كما نفعله "نحن"). وبالفعل، فإن منظومتى الحقيقة هى أن الاستشراق لا يمثل ببساطة بعدا هاما من أبعاد الثقافة السياسية- الفكرية الحديثة، بل أنه هو هذا البعد، وهو بهذه الصورة أقل ارتباطا بالشرق منه بعالم "نا" "نحن" . (ص ٤٦، ٤٧).

(ب) قاعدتا الاستشراق:

ينطلق الاستشراق من قاعدتين هما:

(١)"التباين المطلق" بين الشرق والغرب.

(٢)"السجالية التاريخية" بين الشرق والغرب.

فبالنسبة للقاعدة الأولى، ينطلق الاستشراق وحسب تعبير سمير أمين من قاعدة "التباين المطلق"[٧] بين الشرق والغرب، (فالغرب غرب والشرق

(٧) سمير أمين، نحو نظرية للثقافة، نقد التمركز الأوروبى والتمركز الأوروبى المعكوس، سلسلة دراسات الفكر العربى، معهد الإنماء العربى، ١٩٨٩، ص١٣٨.

شرق ولـن يتقـابلا أبـدا حسـب قـول رائـد الفكـر الاسـتعمارى الشـاعر كيبلنج). فدعاة الفكر الغربى يتعاملون مع الفكر الغربى، كونه موحدا ولـه خصوصية ثابتة منذ البدء، حيث ضمنت احتمال التقدم وهو احتمال غائب عن الشعوب الأخرى فلا مستقبل لهذه الشعوب إلا إذا تخلـوا بالجملـة عـن هويتنهم وخضعـوا لتغريـب شـامل. إن الفكـر الغربـى العنصـرى يدعـى أن نفوق الغرب قد تواجد ضمنيا منذ الأصل.

أما بالنسبة للقاعدة الثانية، "السجالية التاريخية"، فإنه فى إطار تكريـس الإطار المعرفى لعلاقة الغرب بالشرق، أعطى الغرب لنفسه الحق أن يكـون باحثا، والشرق هو موضوع هذا البحث. وتتحول نتائج هذا البحث لتكون سجالا بينهما، والسـجال هنـا بحسـب عزيـز العظمـة، "ليـس خطابـا حـول النواقص، بل هو خطاب جوهرى يواجه عدمه – أى نواقصه المطلقة.."[(٨)].

وتتفق الكتابات الاستشراقية سواء بوعى أو بغير وعى، بقصـد أو بغـير قصد فى نقطة واحدة انطلاقا من "التبـاين" و"السـجال"، ألا وهـى "حصـر المجتمع العربى فى وضعه الراهن، وعملية الحصر هذه لا تـأتى بالاتفـاق ولا تنشأ عن ميل خاص بالباحث، بل هى نتيجة حتمية لوضع المستشرق المعنى. كثيرا ما يأتى الباحث الغربى لدراسة الشرق بهدف اكتشاف أسرار جديدة غير معروفة فى ثقافته. فيرى أنه لا حق له أن يحـدد مسبقا مستقبل الغـير، خاصة إذا كان ذلك التحديـد يسير فـى اتجاه التـاريخ الغربـى"[(٩)] إن هـذا المنهج يؤدى إلى استبعاد أمر حيوى وضرورى بل جوهرى، وهو مـا وصفـه

---

(٨) عزيز العظمة، إفصاح الاستشراق، المسـتقبل العربـى، عـدد ٣٢، أكتوبـر ١٩٨١، ص٤٣.

(٩) عبد الله العروى، الإيديولوجيا العربية المعـاصرة (صياغـة جديـدة)، المركـز الثقـافى العربى، الدار البيضاء، ١٩٩٥، ص١٥٢

"العروى" "بالمستقبل – الماضى". فبمجرد النفى المبدئى ، تنزلق الحركة الاستشراقية بكاملها فى هاوية الأيدلوجيا.

ثانيا : منهج برنارد لويس فى الكتابة وقراءة لبعض أفكاره.

يكتب "برنارد لويس" بمنهجية مركبة ، لذا فهو يعد نقلة نوعية بالنسبة لمن سبقوه من الذين تخصصوا فى الكتابة عن الإسلام / الشرق الأوسط / العرب أو المستشرقين بصفة عامة.. وتنطلق هذه المنهجية بداية من الأكاديمية الصارمة التى تضفى على الكتابة أهمية وقدرا لا يمكن الإقلال منه ، إلا أن ما يهمنا هنا هو المنهجية التى تحمل من الخطر الكثير . وتتجلى هذه المنهجية فى أربعة عناصر أساسية وذلك كما يلى:

(١) رسم صورة تبدو دقيقة للواقع زاخرة بالتفاصيل وعامرة بالمعلومات.

(٢) بناء بنية من التقابلات بين الشرق والغرب فى ضوء التفاصيل والمعلومات التى تنتقى بعناية وربما تكون مصطنعة .

(٣) تمرير مجموعة من الأفكار المعدة سلفا والتى تصب فى توجهات أو استراتيجيات محددة.

(٤) الخروج بعدد من الصيغ العلمية المكتوبة برصانة وحسم .

إلا أن القارئ يمكنه أن يلحظ بسهولة ويسر، وحسب أدوارد سعيد ، أن جهد لويس هو "جزء من البيئة السياسية أكثر من البيئة الفكرية الصرفة"(١١) . ويدلل سعيد على ذلك بالمثال التالى : "... خذ كمثال نموذجى التناظر الذى يقيمه بين نقدى للاستشراق وبين هجوم مفترض على

---

(١١) إدوارد سعيد ، تعقيبات على الاستشراق ، ترجمة وتحرير صبحى الحديدى ، دار الفارس ، بيروت ١٩٩٦ ، صـ١١٩.

دراسات العصور الكلاسيكية القديمة ، وهو الأمر الذى يعتبره ممارسة حمقاء. الشق الأخير سيكون صحيحا بطبيعة الحال، لولا أن الاستشراق والهيللينية لا يقبلان - وعلى نحو جذرى - أية مقارنة . فالأول محاولة لوصف منطقة بأسرها من العالم كملحق ملازم للفتح الاستعمارى لتلك المنطقة ، أما الثانية فلا تدور إطلاقا حول الفتح الاستعمارى المباشر لليونان فى القرنين التاسع والعشرين . أضف إلى ذلك أن الاستشراق يعبر عن كره غريزى للإسلام، والهيلينية تعبر عن التعاطف مع اليونان"[١٢].

كما ذكرنا سابقا، فإن المنهجية التى يكتب بها لويس ، منهجية مركبة[١٣] ، فمن خلال غزارة المعلومات وتكوين المقابلات بين الغرب والشرق / الإسلام / العرب، دائما يصل إلى نتيجة ذات وجهين هى :

(١) إن الغرب غرب ، وإن الشرق شرق.

(٢) على الشرق أن يتبع الغرب أن أراد لنفسه التقدم.

وفى نفس الوقت ، فإن المعالجة التى يعتمدها لويس فى نصوصه نجدها معالجة غير بريئة ، فنجده يفرد كثيرا فى استعراض نقاط القوة فى التاريخ العربى / الإسلامى / الشرق أوسطي، ولكنه فى نفس الوقت يرى أنه كان

---

(١٢) إدوارد سعيد، م.س.، ص ١١٨.

(١٣) اعتمدنا بشكل رئيسى على قراءة كتابين هما:

(أ) The Middle East: 2000 years of History From The Rise of Christianity To the Present Day, Weidenfeld & Nicolson, London, 1995.

(ب) The Arabs in History, (Revised Edition), Harper Torchbooks, U.S.A, 1966.

من الطبيعى من حيث التطور التاريخى أن يحدث التفاعل بين الشرق والغرب بشكل تذوب فيه الحضارة الإسلامية / العربية / الشرقية فى الحضارة الغربية . وفى سبيل ذلك نجده يوظف التاريخ لصالح فرضيات معدة سلفا، أو تصب فى استراتيجيات غربية سياسية معاصرة جارى التخطيط لها أو تنفيذها على أرض الواقع .

ومن النوع الأول، وأقصد به توظيف التاريخ لصالح فرضيات معدة سلفا، يمكن أخذ كتاب الشرق الأوسط The Middle East ، لذلك على اعتبار أن هذا الكتاب ذروة أعماله ويمثل مرجعا هاما حول هذا الموضوع . فمن الصفحة الأولى وحتى الأخيرة ، يحاول المؤلف، مستعينا بالتاريخ ، على تأكيد التباين بين الشرق والغرب، رغم وجود عناصر للقوة فى حضارة الشرق، ورغم قدرة الغرب على إدخال الكثير من المظاهر والتقنيات إلى الشرق.

لقد كان المدخل الرئيسى للكتاب هو وصفه للمقاهى المنتشرة فى بيئة الشرق الأوسط التى تكتظ بالرجال عادة (دون النساء) ، يلعبون النرد ويدخنون النرجيلة ويستمعون "بنصف أذن" لكل ما يبث فى الإذاعة والتليفزيون . ومن خلال هذا المشهد الافتتاحى عن واقع الشرق الأوسط . يذكر كيف أنه لم يتغير عبر قرون على عكس المقاهى فى أوروبا . وكل التغيرات التى طرأت لاحقا على مقاهى الشرق الأوسط تمت عن طريق الغرب. ويؤكد على أن التغيير الذى تم إنما كان بتأثير من الخارج (الغرب)، أى أنه غير أصيل وذلك على النقيض تماما لما يحدث فى الغرب ، فالتغيير أصيل وطبيعى ويتم وفقا للتطور التاريخى للغرب ، حتى على مستوى المقاهى. (بالطبع لا يحدثنا الكاتب عن الأسباب)، وهكذا يستمر هذا المنهج عبر أجزاء الكتاب الأربعة والتى يختمها بتحدى الحداثة والذى تركه

مفتوحا للتناقضات وأن العالم الخارجى سوف يتركهم فى سلام يحسمون هذه التناقضات وربما يساعدونهم في ذلك ، هذا ما يصل إليه بعد دراسة تاريخية للمنطقة على مدى ألفى عاما ناقش فيها التقاطعات بين الشرق والغرب على مستوى الدولة والاقتصاد والنخب ، كذلك درس الدين والقانون والثقافة . وفى جملة حاسمة يقول : رغم كل التحولات التى مرت بالشرق الأوسط والتى سببها الغرب فإن الشرق أوسطين أو العرب أو المسلمين، لم يزلوا يؤمنون بأن مصيرهم فى لعبة النرد، رغم أن الغرب قد أدخل لعبة الشطرنج التى يتم فيها تحريك عناصرها إراديا وفق رؤى وخطط. أما النوع الثانى ، والذى يحاول فيه ، التخديم "الفكرى لاستراتيجيات سياسية فنجدها فى دراساته المنشورة فى دوريات هامة ومؤثرة وقد أخذنا منها على سبيل المثال لا الحصر دراستين هما:

(١)"جذور السخط الإسلامى، والتى نشرت بمجلة Atlantic Monthly عام ١٩٩٠.

(٢)"إعادة التفكير فى الشرق الأوسط" والتى نشرت بمجلة Foreign Affairs عام ١٩٩٢.

فى الدراسة الأولى : "جذور السخط الإسلامى" [١٤] : يبدأ الكاتب بمقدمة عن العلاقة بين الدين والسياسة والعلاقة بين مؤسسة كل منهما: الكنيسة والدولة، وطبيعة هذه العلاقة التى قد تكون متحدة ، أو منفصلة أو خضوع أحدهما للآخر، أو قد تكون صراعية.. ثم طرق إلى الإسلام كونه واحداً من أعظم ديانات العالم دون أن يفسر ما العلاقة بين المقدمة التى بدأ بها واستدعائه للإسلام . وفجأة يذكر بالنص : "لقد عرف الإسلام فترات نفخ فيها روح الكراهية والعنف فى أتباعه، ومن سوء حظنا فإن جزءا من العالم الإسلامى ـ ليس كله بل ولا يشكل الأغلبية لا يزال

يرزح تحت وطأة هذا الميراث، ومن سوء حظنا أن غالبية - وليس كل - هذه الكراهية والعنف موجهة ضدنا (لاحظ الصيغة التى يستخدمها) فى الغرب.

ينبغى علينا ألا نضخم أبعاد هذه المشكلة . فالعالم الإسلامى غير مجمع على رفض الغرب، كما أن الأقاليم الإسلامية فى العالم الثالث ليست هى الأشد تطرفا ومغالاة فى عداوتها لنا. كما أننا نشاطر أعدادا هائلة من المسلمين - وربما الأغلبية منهم - المعتقدات والآراء والتطلعات الثقافية والأخلاقية والاجتماعية والسياسية . ولا يزال هناك حضور غربى مهيمن وفعال - ثقافيا واقتصاديا ودبلوماسيا - فى الأراضى الإسلامية . كما أن بعض البلدان الإسلامية هى حليفة للغرب . وبالتأكيد فإن السياسة الأمريكية لم تعان كوارث ومشكلات فى أى جزء من العالم الإسلامى - لا فى الشرق الأوسط ولا فى غيره - مقارنة بجنوب شرق آسيا وأمريكا الوسطى كما أنه لم تتورط القوى العسكرية الأمريكية فى أى مكان من العالم الإسلامى ، سواء على مستوى القوات الفعلية المقاتلة ، أو على مستوى "المستشارين العسكريين"... [١٤] . وفى محاولته للإجابة عن سؤال: لماذا العدائية فى المقام الأول؟ يجيب لويس" ... إن السبب الذى يقدم باستمرار كمبرر للمشاعر المعادية لأمريكا بين المسلمين اليوم هو الدعم الأمريكى لإسرائيل ، وهذا الدعم بالتأكيد عامل أهمية يزداد بروزا بالأطراد مع ازدياد التورط ، ولكن هنا أيضا توجد بعض الغرابة من الصعب إرجاعها إلى أسباب مفردة بسيطة . ففى الأيام الأولى لتأسيس إسرائيل، وبينما حافظت الولايات المتحدة على مسافة معينة ، كان الاتحاد

---

(١٤) جذور السخط الإسلامى ، فى الإسلام الأصولى ، دار الجيل، بيروت، ١٩٩٤، ص١١ (الترجمة العربية).

السوفيتى يمنحها اعترافا شرعيا... وفى عام ١٩٥٦ كانت الولايات المتحدة هى التى تدخلت بالقوة وبشكل حاسم لتأمين انسحاب القوات الإسرائيلية والفرنسية والبريطانية من مصر.. الاتهامات مألوفة نحن "الغربيين" متهمون بالبطريركية ، والتمييز العنصرى ، والإمبريالية ، والاستقلال بالنسبة لهذه الاتهامات وغيرها من الاتهامات المشابهة، ليس لدينا خيار إلا أن نرد الاتهام ، ليس كأمريكيين ولا كغربيين ، بل كمخلوقات إنسانية وكأعضاء فى الجنس البشرى. فبالنسبة لبعض هذه الاتهامات لسنا وحدنا الآثمين ، وبالنسبة لبعضها الآخر نحن بعيدون كثيرا عن أن نكون الأسوأ. فمعاملة النساء فى العالم الغربى ، وعموما فى النصرانية ، كانت على الدوام غير منصفة وغالبا جائرة ، ولكن حتى فى أكثر سيئاتها كانت أفضل حالا من نظام تعدد الزوجات والتسرى..." [١٥].

يلاحظ كم المغالطات ومناقشة جزئيات وتفاصيل تبعد تماما عن أصل القضية وتعزلنا عن لب الصراع بين الغرب والشرق ، (بالطبع هناك تفاصيل كثيرة إلا إننى سوف أكتفى بذلك أملا التعرض فيما بعد فى إطار دراسة تفصيلية لمجمل كتابات لويس) فى الدراسة الثانية ، "إعادة التفكير فى الشرق الأوسط"،؛ يحاول لويس فى هذه الدراسة أن يروج لأفكار أساسية تأتى متسقة تماما مع مرحلة ما بعد حرب الخليج الثانية فهاهو يقول : "إن القومية العربية قد فشلت ، وحتى العالم العربى كوحدة سياسية قد انتهى فالتغيير الأهم - وهو تغيير مازال قيد التحقق - فيتجسد فى نهاية حقبة من التاريخ ، هى الحقبة الحديثة فى تاريخ الشرق الأوسط - التى كانت قد بدأت - كما هو معروف - عام ١٧٩٥ ، أى عند وصول نابليون إلى مصر وعليه فإنه يطرح فكرة تبلور معالم شرق أوسط جديد يضم العرب

---

(١٥) جذور السخط الإسلامى، ... م. س ، ص ٢١، و٢٢.

وإسرائيل والجمهوريات الإسلامية السوفياتية السابقة على أن ترى تجربة إسرائيل فيه تجربة يمكن أن تضاف إلى دول الديمقراطيات العريقة وفي نفس الوقت يقدم تركيا باعتبارها النموذج الذى يجب على دول المنطقة أن تقتدى به. فانطلاقا من أن الديمقراطية وحدها هى القادرة على تأمين حلول لمشكلات دول المنطقة .. فالديمقراطية فى تركيا مثلا لم يورثها الحكام الأمبرياليون ، ولم يفرضها الأعداء المنتصرون . بل كانت خيارا حرا من قبل الأتراك أنفسهم .. ولقد أثبتوا ، بإرادتهم وعزمهم أنهم قادرون على تجاوز أى معوقات .. ويمكن للآخرين أن يجدوا فى ذلك المثل.." (١٦).

هذا بالإضافة إلى كلام غير دقيق عن دور الولايات المتحدة الأمريكية وعدم رغبتها فى لعب دور فى المنطقة وإن كان هذا لا يمنع من أن تحافظ على هيمنتها السياسية عليه – إلخ.

يلاحظ من مجمل ما قدم ما يلى:

(١) أن هناك قراءة أخرى للتاريخ لا تحسب إضافة لقراءات أخرى وإنما هى قراءة ، ذات أغراض سياسية وصبغة أيديولوجية.

(٢) يمكن فى لحظات محددة أن يخلع المستشرق الثوب الأكاديمى ويبدأ فى حوار لا أقول "تجريحى" وإنما "سجالى" بغرض استكمال منظومة للهيمنة لتمتد إلى الثقافى والفكرى.

(٣) إعادة هندسة المنطقة بما يتناسب مع المصالح الاستراتيجية ، ولا يخفى كيف يتم الترويج لفكرة الشرق الأوسط الجديد ، فى نفس اللحظة

---

(١٦) Rethinking The Middle East, Foreign Affairs, Vol 17, n6.4 (Fall 1992), pp. 99-119 no.

التى يروج فيها شيمون بيريز لنفس الفكرة[17].

(٤) تقديم النموذج التركى نموذجا للاقتداء رغم الإشكاليات المعقدة التى يواجهها الداخل التركى وعدائه للعرب وتحالفه مع إسرائيل.

(٥) الاستعداد لطرح أفكار غير صحيحة واستدراك ذلك صونا لما هو حقيقى مثل عدم اهتمام أمريكا بالمنطقة ثم الاستدراج إلا فيما لا يخل بهيمنتها السياسية.

(٦) اجتناب طرح فكرة التطور الذاتى لدول المنطقة وإنما دوما عليهم الاقتداء أو التمثل بآخرين وبلغة أخرى اللحاق.

وبعد .. حاولنا فيما سبق أن نقترب قدر الإمكان من برنارد لويس مما يعيننا على قراءة النص المترجم والخلفية التى يكتب على أساسها وفى نفس الوقت تمكننا من طرح بعض الملاحظات الاسترشادية الخاصة بالنص المترجم.

(٣)

الغرب والشرق الأوسط : ملاحظات عامة على النص المترجم

ينتمى نص "الغرب والشرق الأوسط" إلى هذه النوعية من النصوص التى تكرس "تأييدا" لعلاقتى "السجال" و"التباين" بين الغرب والشرق.

---

(١٧) فى إطار مواجهة مؤتمر الأقليات الذى كان من المزمع عقده فى مصر عام ١٩٩٤، حاولنا تلمس العلاقة بين الاستراتيجية الإسرائيلية فى تفتيت المنطقة والاستراتيجية الغربية ويمثلها لويس فى إعلانه انتهاء العرب وإلغاء دورهم لمصلحة إسرائيل وأن ذلك استمرارا لما طرقه بريجنسيكى فى عام ١٩٧٠، راجع سمير مرقس، المسار التاريخى لمخطط الإلحاق التجزئة للمنطقة العربية ، القاهرة ، عدد ١٤٠، يوليو ١٩٩٤، ص ٤٠-٤٧.

وفى سبيل ذلك يحشد الكاتب كما هائلا من المعلومات ويطرح العديد من المقولات الجازمة النهائية عن حضارة الغرب المنتصرة ويسرب الكثير من الأفكار فى ثنايا النص تهدد ، من جانب ، قدرتنا الذاتية حول إمكانية النهوض ، ومن جانب آخر ، تدخل قيما ومفاهيما غير صحيحة وليتها كانت من نوعية تدعم ما هو أصيل لدينا وتتفاعل معه وتطوره ، إنما هى تستبعد الأصيل من القيم ، بحيث تتحرك جميعا ، فى إطار منظومة قيميه حاكمة، صوب النمط والنموذج المهيمن . إنه نوع من إعادة تشكيل الوعى تعتمد على استخصار مجتزأ للتاريخ ، وإنتاج تأويلات متميزة ، بالتالى، تدفعنا إلى مزيد من التبعية أو الالتحاق غير المتكافئ بالغرب.

إن الإجابات الحاسمة هى سمة النص ، إجابات يتم "رصها" نتيجة لرؤية خاصة بالغرب للشرق لا تأخذ فى الاعتبار السياق التاريخى بأبعاده الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والثقافية، أو الأسباب الموضوعية التى أدت إلى حدوث واقعة معينة أو سارت بالشرق مساره التاريخى الذى يصفه الغرب بأنه غير محدث، والتى ربما يكون أحد هذه الأسباب التى أعاقت الشرق عن التحديث هو الغرب نفسه.

وسوف نحاول أن نقترب من النص ، وإلقاء الضوء عليه بشكل لا يحرم القارئ حقه فى أن يقرأ النص بحرية ، وذلك من خلال طرح بعض الملاحظات العامة حول النص والتى أرى من واجبى أن أبرزها وذلك كما يلى:

(١)نقطة الانطلاق الأساسية لدى "لويس" هى تبنيه "منهج المقارنة" فهو فى إطار "مناقشته لما طرحه من أسئلة" فى بداية النص ، يقول : "من الضرورة إجراء عدة مقارنات" ويبقى أن نسأل :

– هل وفق الكاتب فى اختيار المقارنات الصحيحة؟

- هل أخضعها لمعايير منضبطة؟

- هل فسر خلفية كل مثال تم استحضاره؟

(٢) فى الجزء الثالث من النص والذى اتخذ عنوان : "ما الذى يجب عملـه؟ يجزم الكـاتب فـى أننـا نسـير فـى الاتجـاه الخـاطئ، وعليـه يطـرح علـى "لساننا" سؤالين:

- ما هو الخطأ فيما فعلناه؟

- ومن الذى فعل ذلك بنا؟

ويجيب انه إذ تبعنا الإجابة عن السؤال الثانى فإن ذلك يقودنا إلى تبنـى نظريات المؤامرة وعقده الاضطهاد . ولكننـا إذا تتبعنـا السـؤال الأول فـإن ذلك يقودنـا مباشـرة إلى منطـق آخـر فـى التفكـير هـو كيـف يمكـن لنـا أن نصوب الخطأ؟

إن الكاتب يريد من حيـث المبـدأ إقـرار أن الشـرق يسـير فـى الطريـق الخطأ، ويعيش فى حالة خاطئة وينبغى عدم التفكير كثيرا فـى أسـباب ذلـك وإنما علينا وبشكل علمى اتخاذ الإجراءات العملية التى تمكننا مـن تصويـب الخطأ والذى فى تصوره يكون باتباع النموذج الغربى . ولا يضـع الكـاتب احتمال، مجرد احتمال ، أن الوضع "الخطأ" بحسب تعبـيره قـد يكـون أحـد أسبابه أمورا تخصنا نحن فى الداخل. كما لو كان يفترض منذ البداية أن كل الأسباب التى يمكن رصدها سوف تنحصر فى دور الغرب وعلاقته بنا.

ومن جانب آخر هل يسـتقيم هـذا المنهـج مـع ضـرورة قـراءة التـاريخ والوعى به ومحاولة الزج برؤيـة حضاريـة ذاتيـة تمكننـا مـن التطـور ، بحيـث يكون التنفيذ أصيل ونابع من واقعنا وتطورنا التاريخى الطبيعـى ، وهـذا مـا

انتقده ولاحظه لويس نفسه في مجلده الضخم "الشرق الأوسط".

(٣) لا يقف الكاتب كثيرا عند التوسع التجارى الأوروبى ويفسر لنا أسبابه وتوجهاته التى بالقطع لم يكن التحديث أحدها كما يريد أن يؤكد . ولم يشر إلى قضية الاقتران الاقتصادى من خلال الامتيازات الأجنبية التى بدأت فى القرن السادس عشر وتحديدا عام ١٥٣٥ رغم أن الإطار الزمنى الذى حدد مقاربته فى هذا النص تتخذ الدولة العثمانية بداية لها. صحيح أن الخلل الداخلى قد أدى إلى فتح باب الامتيازات الأجنبية على مصراعيه بكل آثاره السلبية ، إلا أن هذا لا يعنى بتبرير الإلحاق.

(٤) يقدم الكاتب النموذج التركى باعتباره النموذج الحضارى المثالى متجاوزا عن التناقضات الجادة الداخلية المعاصرة . كذلك يطرح إسرائيل كخبرة جديرة بالاهتمام والنقاش كونها دولة ديمقراطية حديثة ذات مكون دينى هام فى هويتها ، متجاوزا مرة أخرى عن التفاعلات الداخلية لإسرائيل.

(٥) يلاحظ الانتقال الماهر فى استخدام تعبيرات الإسلام / المسلمون فى مواقع واستخدام العروبة أو بغير .. الشرق أوسطيون ، فى مواضع أخرى في النص، وطرح الحضارى فى السياق الدينى ، والدينى فى السياق الاقتصادى بشكل يصيب القارئ بالاضطراب.

(٦) وفى إطار تفسيره للآثار السياسية والاجتماعية لوجود البترول / النفط فى المنطقة لا يشير من قريب أو بعيد لدور الغرب الحاسم فى إعادة رسم خريطة المنطقة وتقسيمها وربطها باقتصاديات الغرب مباشرة ، بشكل يخدم مصالحه الاقتصادية منذ بداية القرن، وإصراره على أن

تبقى منابع البترول تحت السيطرة.

بالطبع هناك العديد من الملاحظات التى يمكن أن ترصد ولكن أترك للقارئ الحرية الكاملة فى التفاعل مع النص الذى تتركز أهميته فى كيف ينظر الغرب لنا والتى حسمها برنارد لويس بأن على الشرق أن يتبع حداثة الغرب ، فمعايير الحضارة السائدة دائما تعرف الحداثة. إن هؤلاء الكتاب يتعاملون مع تجربتنا التاريخية بحالة من "الاندهاش" عن وضع الشرق وتأخره عن مواكبة العصر والاقتداء بالغرب . كما لو كانت التجربة التاريخية الغربية نفسها لم تمر بظروف قد يكون بعضها مشابها لما فى الشرق. فالغربيون عند تعاملهم مع الشرق وحسب العروى ، لا "يروا سوى الجوانب السلبية كما يفعل السائح"، ويتساءلون لماذا لا يلحقون بالغرب، قفزا على التاريخ والواقع ، ونقضا للتجربة الغربية نفسها . بالطبع يزداد الأمر "لبسا" إذا اتسم الطرح بتحقيق الاستراتيجيات السياسية الغربية . عموما وكما ذكر، إنها محاولة قراءة مضادة" لكيف يقرأ الغرب واقعنا، كلها تسهم فى تحقيق النهوض.

❖

سمير مرقس

- باحث مصرى معنى بقضايا: المواطنة، والشأن القبطى، والحوار الإسلامى - المسيحى
- أسس وأدار المركز القبطى للدراسات الاجتماعية.
- عضو الفريق العربى للحوار المسيحى الإسلامى. ويشارك كمستشار للتنمية لمركز الفسطاط للدراسات.
- يعمل فى مجال التنمية منذ عام ١٩٨٦.
- يشغل منصب الأمين العام المشارك لمجلس كنائس الشرق الأوسط.
- يكتب بشكل دورى فى العديد من الدوريات المصرية والعربية.
- من كتاباته:

(١) مشاركة الشباب القبطى فى الحياة السياسية بين المحددات العامة والصعوبات الخاصة.

(٢) التنمية الشعبية التفاعلية: مشروع نموذج لممارسة العملية التنموية.

(٣) تجربة لاهوت التحرير فى أمريكا اللاتينية.

(٤) المواطنة فى الخبرة المصرية : مسارها التاريخى، وإشكالياتها المعاصرة.

من هو برنارد لويس

- ولد فى لندن بتاريخ ١٩١٦/٥/٣١
- نال الليسانس مع مرتبة الشرف الأولى من جامعة لندن عام ١٩٣٦.
- دبلوم الدراسات السامية من جامعة باريس ١٩٣٧.
- الدكتوراه من جامعة لندن ١٩٣٩.
- أستاذا الدراسات الخاصة بالشرق الأدنى فى جامعة برنستون.
- عضو دائم فى معهد الدراسات المتقدمة فى برنستون - نيوجرسى ١٩٧٤.

عمل :

- كأستاذ فى معهد الدراسات الشرقية والأفريقية بجامعة لندن (١٩٤٩ - ١٩٧٤).
- وكأستاذ زائر فى جامعة كاليفورنيا (١٩٥٥ - ١٩٥٦).
- وفى جامعات كولومبيا (١٩٦٠) وانديانا (١٩٦٣).

وهو أيضا:

- زميل الأكاديمية البريطانية
- وعضو مراسل لمعهد مصر ١٩٦٩.
- وعضو شرف فى الجمعية التاريخية التركية (١٩٧٢) وفى وزارة الثقافة التركية.

- وحصل على الدكتوراه الفخرية من الجامعة العبرية بالقدس (١٩٧٤).

وهو عضو في:

- الجمعية الآسيوية الملكية.
- الجمعية التاريخية الملكية.
- المعهد الملكي للشؤون الدولية.
- الجمعية الأمريكية الشرقية.

من أعماله:

(١) تركيا اليوم (١٩٤٠)

(٢) العرب في التاريخ (١٩٥٠) وطبعات متتالية.

(٣) أسطنبول وحضارة الأمبراطورية العثمانية.

٤)الشرق الأوسط (١٩٩٥).

دراساته:

الشيوعية والإسلام- الشؤون الدولية ١٩٥٤.

الديمقراطية والشرق الأوسط - جمعية الشرق الأوسط.

الغرب والشرق الأوسط

فى عام ١٩٩٧، نشر برنارد لويس ، والذى وصف بأنه "إمام المستشرقين المعاصرين"، دراسة بعنوان "الغرب والشرق الأوسط" وذلك بمجلة فورين أفيرز الشهيرة. وتأتى أهمية هذه الدراسة فى أنها تعكس رؤية الغرب لمنطقتنا ، كذلك تحاول تأكيد أن الصراع بين الغرب والشرق الأوسط قد حسم لصالح الغرب؛ لذا فعلى الشرق الأوسط ، وحتى يتمكن من اللحاق بالحداثة الغربية ، أن يلتحق بالغرب. ولا يخفى أن هذه النوعية من الدراسات شأنها شأن دراسة هانتيجتون الشهيرة "صدام الحضارات" إنما تتواكب مع ممارسات الهيمنة الغربية . "فالخصومة" القائمة على "السجال" و"التباين" هى الكلمة المفتاح التى تفرض نفسها على العلاقة بين الغرب والشرق. وعليه فإن الأطروحة التى بين أيدينا، لابد وأن تؤخذ بعناية واهتمام حيث تعكس رؤية الغرب لنا، وماذا يدبر لنا .. وما الذى يريد أن يمرره ليستقر فى وجداننا وفكرنا ، خاصة وأن القارئ لدراسات سابقة لنفس الكاتب يمكنه أن يلحظ كيف تتضمن هذه النوعية من الدراسات أفكارا استراتيجية يتم العمل على تنفيذها فيما بعد. وقد حرصنا أن نعلق على النص المترجم فى إطار الفكر الاستشراقى أو "المناطقى" حسب المصطلح المعاصر ، بحيث يكون تعليقنا "قراءة مضادة لقراءة الآخر لنا" . إنها محاولة للإطلاع على الأدبيات الاستراتيجية المعاصرة التى تعطى لنفسها الحق أن تنظر وتفكر للآخرين، ربما تدفعنا هذه القراءة لتكون بداية أن نبادر بوضع الاستراتيجيات المضادة التى تضمن لنا التحقق الحضارى.

سمير مرقس